مجلة بحوث
كلية الآداب

البحث (٢)

بلاغة التعبير القرآنى
فى حديثه عن
مكة المكرمة والمدينة المنورة

إعداد

د / صبحى إبراهيم عفيفى المليجى
المدرس فى قسم البلاغة والنقد بكلية اللغة العربية بالمنوفية
والأستاذ المساعد فى جامعة سطام بن عبد العزيز بالسعودية

السنة ٢٧ العدد (١٠٤) يناير ٢٠١٦م

http : // Art.menofia . edu. eg *** E- mail: rifa2012@ Gmail.com

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلاغة التعبير القرآني
في حديثه عن
مكة المكـرمة والمدينـة المنورة

د. صبحي إبراهيم عفيفي المليجي
المدرس في قسم البلاغة والنقد بكلية اللـغة العربـية بالمنوفيـة
والأستاذ المساعد في جامعة سطام بن عبدالعزيز بالسعودية

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فلا يخفى على المسلمين بصفة عامة، والباحثين بصفة خاصة ما لـ "**مكة المكرمة**"، و "**المدينة المنورة**" من قدسية، وما تتمتعان به من مكانة سامية علية، وثمة مزية أخرى أخبر بها الرسول صلى الله عليه وسلم في حديثين رواهما الإمام مسلم، وهي أن الإسلام والإيمان يأرزان إليهما في آخر الزمان، إذ يقول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه ابن عمر: «إِنَّ الإِسْلاَمَ بَدَأَ غَرِيبًا وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ وَهُوَ يَأْرِزُ بَيْنَ الْمَسْجِدَيْنِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ فِي جُحْرِهَا»[1]، ويقول أيضا فيما يرويه أبو هريرة: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا»[2]، مما يؤكد مكانتهما، ويدل على أنهما موطنا الإسلام والإيمان إلى آخر الزمان.

وقد دفعني ذلك إلى العودة إلى كتاب الله الحكيم لألتمس فيه مواضع ذكر هاتين المدينتين المقدستين، قاصدا من وراء ذلك إلى ما يلي:

أولا- استجلاء بعض أسرار النظم القرآني، وبيان أوجه الإعجاز البلاغي لتراكيبه وهو يتحدث عنهما؛ انطلاقًا من اقتناعي بأننا إذا أردنا أن نعرف المكانة الحقيقية لهما فإن

---

(1) صحيح مسلم برقم (٣٩٠).
(2) صحيح مسلم برقم (٣٩١).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطريق إلى ذلك هو حسن استحضار البيان القرآني عنهما وحسن فقهه وفهمه، لأنه البيان الذي لا يساويه بيان آخر في هذا الموضوع أو في غيره.

ثانيا- تزويد مكتبة البلاغة العربية بعمل يخص الآيات القرآنية التي تتحدث عن "**مكة والمدينة**" بالدرس والتحليل البلاغي، وذلك لخلوها - فيما أعلم - من عمل يتناول هذا الموضوع.

ثالثا: إثراء ما استخلصه أئمة البلاغة من أصول البيان، بحسن النظر في علم البيان، فمثل هذا النظر يزيد ما كان من تلك الأصول صحيحا رسوخا واتساعا، وقد يخصص ما هو كالعام في فهم بعض الناظرين، وقد يبين أثر السياق والمقام في الدلالة والإفادة، وغير ذلك مما يعود على البحث البلاغي بفوائد جمة.

ومن ثم عقدت العزم على دراسة هذا الموضوع، الذي اكتنفته صعوبتان ذللهما الله تعالى بحوله وفضله:

أولاهما: أنه يتصل بكتاب الله تعالى وبيانه العلي المعجز، الذي يفرض التحوط والتدقيق في تناوله، و**الأخرى**: أن موضوع "**مكة والمدينة**" وما يتصل بموقعهما في السياق القرآني، وما يترتب على ذكرهما من لطائف المعاني لم يحظ من العلماء- سواء منهم البلاغيون والمفسرون- بقدر كاف من التدبر والتأمل والتناول الذي يعين من يريد أن يخصهما بالدرس والبحث المستقل.

وقد اختارت الدراسة للوقوف على أسرار التعبير القرآني في هذا الموضوع المنهج التحليلي المعتمد على التحليل والتأويل والمقارنة والتعليل، والذي فرض عليها أن تقوم بإيراد الآية التي تم فيها ذكر "**مكة**" **أو** "**المدينة**"، وأن تبين علاقتها بالسياق الذي جاءت فيه بشيء من الاختصار، وأن تهتم بتوضيح المعاني والأسرار التي من أجلها ذكرت كل مدينة منهما باسمها العلم أو بغيره، مع بيان أثر ذلك في المعنى، كما حاولت الدراسة الكشف عما يترتب على خلو النظم الحكيم من ذكرهما، أو التعبير عنهما باسم غير الاسم الذي اختاره القرآن لكل منهما.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولم يَفُت الدراسة أن تتوقف بالدرس والتحليل عند بعض التراكيب القرآنية، وما فيها من أساليب بلاغية، مع بيان ما توحي به من جليل المعاني، وعظيم التنبيهات لا سيما فيما يتصل بالموضوع الذي قامت من أجله.

كما أوجب ذلك المنهج أن يأتي هذا العمل في مقدمة ومبحثين وخاتمة:

- قامت **المقدمة** ببيان الأسباب التي دفعت إلى اختيار هذا الموضوع، مع إيضاح المنهج المتبع في دراسته.
- و**المبحث الأول**: كان بعنوان: **بلاغة التعبير القرآني عن "مكة المكرمة"**، وفيه مطلبان:
  - الأول: **بلاغة التعبير عن "مكة" بأسمائها المختلفة.**
  - الآخر: **بلاغة التعبير عن "مكة" باسم "البلد".**
- و**المبحث الثاني**: تناول **بلاغة التعبير القرآني عن "المدينة المنورة".**
- ثم جاءت **الخاتمة** لتكشف عن أهم النتائج التي انتهت الدراسة إليها.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن يجزي كل من أعان عليه بكلمة أو رأي أو دعاء خير الجزاء.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباحث

د. صبحي إبراهيم عفيفي المليجي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الأول

بلاغة التعبير القرآني عن "مكة المكرمة"

وفيه مطلبان:

- **الأول: بلاغة التعبير عن "مكة" بأسمائها المختلفة.**
- **الآخر: بلاغة التعبير عن "مكة" باسم "البلد".**

سُميت مكة في القرآن الكريم بثلاثة أسماء، هي: بكة، وأم القرى، ومكة، وذلك في أربعة مواضع من كتاب الله الحكيم، كما عبر عنها القرآن بلفظ "البلد" نكرة ومعرفة ست مرات في خمسة مواضع.

وللنظم في كل موضع منها أسرار ومزايا ومقاصد ودلالات أدت إلى إيثار التعبير عنها بالاسم الذي ذكره في موضعه، وهو ما سوف تحاول الدراسة الوقوف معه بالتدبر والتأمل من خلال كل موضع منها.

المطلب الأول

بلاغة التعبير عن "مكة" بأسمائها المختلفة

سبق القول بأن مكة قد سُميت في الذكر الكريم بثلاثة أسماء، هي: بكة، وأم القرى، ومكة، وذلك في أربعة مواضع من كتاب الله الحكيم.

الموضع الأول:

- في سورة آل عمران يقول تعالى **(قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)**(آل عمران ٩٥-٩٧).

حيث سماها النظم الحكيم في هذا الموضع "بكة"، يقول صاحب اللسان: "سميت بذلك لأنها كانت تَبُكّ أعناق الجبابرة إذا ألحدوا فيها بظلم، وقيل: لأن الناس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتباكّون فيها من كل وجه أي يتزاحمون، وقال يعقوب: بَكَّةُ ما بين جبلي مَكَّة؛ لأن الناس يبكُّ بعضهم بعضاً في الطواف أي يَزْحَمُ؛ ... وقيل: سميت بَكَّة لأن الناس يبك بعضهم بعضاً في الطرق أي يدفع، وقال الزجاج في قوله تعالى "إن أول بيت وضع للناس للذي ببَكَّة مباركاً"، قيل: إن بَكَّة موضع البيت وسائر ما حوله مَكَّة، قال للذي ببَكَّة، فأما اشتقاقه في اللغة فيصلح أن يكون الاسم اشتق من بَكَّ الناسُ بعضهم بعضاً في الطواف أي دفع بعضهم بعضاً، وقيل: بَكة اسم بطن مَكَّة سميت بذلك لازدحام الناس»[٣].

وسوف يكشف لنا السياق عن السبب في إيثار التعبير عنها بـ "بكة" في هذا الموضع.

فقد جاءت الآيات التي تتحدث عن أم القرى في هذا الموضع من سورة آل عمران في سياق حديث السورة عن أهل الكتاب، واستغلالهم بعض الأحداث من أجل التشكيك في الرسالة التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، ومن ذلك تحليل الإسلام لبعض الأطعمة التي كانت محرمة عليهم، وحديثهم الذي لا ينقطع ولا يفتر عن التوجه إلى بيت المقدس (قبلة اليهود) في الصلاة فترة من الزمن بعد الهجرة من مكة إلى المدينة، على الرغم من أن هذا الموضوع قد نوقش مناقشة وافية في سورة البقرة.

حيث رد القرآن هنا على فريتهم الأولى ببيان أن ما حُرِّم من الأطعمة على بني إسرائيل كان في الأصل حلالا، لكن أباهم إسرائيل هو الذي حرمه على نفسه[٤]، وذلك في قوله تعالى "كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ"(آل عمران ٩٣)، ثم عقب على ذلك بقوله "فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ

---

(٣) لسان العرب – مادة بكك.

(٤) تقول الروايات: إن يعقوب عليه السلام مرض مرضا شديدا ، فنذر لله لئن عافاه ليمتنعن - تطوعا - عن لحوم الإبل وألبانها وكانت أحب شيء إلى نفسه. فقبل الله منه نذره. وجرت سنة بني إسرائيل على اتباع أبيهم في تحريم ما حرم .. كذلك حرم الله على بني إسرائيل مطاعم أخرى عقوبة لهم على معصيات ارتكبوها. وأشير إلى هذه المحرمات في آية سورة «الأنعام» «وَعَلَى الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ، وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُما إِلَّا ما حَمَلَتْ ظُهُورُهُما أَوِ الْحَوايا أَوْ ما اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ، ذلِكَ جَزَيْناهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصادِقُونَ»(الأنعام ١٤٦) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الظَّالِمُونَ"(آل عمران ٩٤)، لبيان أن من يعيد الكلام في هذا الموضوع على غير صورته الحقيقية، وأسسه الصادقة فإنهم يستحقون ما ينزله الله تعالى بهم من عقاب أو عذاب، لأنهم ظالمون مفترون علي الله جل جلاله، وتنزهت ذاته.

ثم رد القرآن عن فريتهم الثانية التي توحي بتفضيل بيت المقدس على البيت الحرام، الذي يتوجه إليه المسلمون بالآيات التي بين أيدينا.

والتي تبدأ بفعلي أمر "**قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**"، **الأول**- موجه إلى رسول الله ﷺ أن يُعلم بني إسرائيل بعبارات واضحة بأن هذا البيت ما وضع إلا ليكون قبلة للناس ومثابة لهم وأمنا، وهو ما كان القرآن قد قرره في سورة البقرة، يقول صاحب الظلال "ولعل الإشارة هنا في قوله "قُلْ صَدَقَ اللَّهُ .." تعني ما سبق تقريره في هذا الأمر، من أن هذا البيت بناه إبراهيم وإسماعيل ليكون مثابة للناس وأمنا، وليكون للمؤمنين بدينه قبلة ومصلى"(٥)، وفيه أيضا تأكيد لما سبق التصريح به من كذب اليهود وافترائهم على الله سبحانه وتعالى.

والآخر- "فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ"، وهو أمر جاء معطوفا على ما قبله بالفاء التي تفيد إلى جانب التعقيب معنى السببية، والتي تكشف عن الطبيعة الجدالية المصحوبة بالأكاذيب والافتراءات لبني إسرائيل، الذين يدعون أنهم يؤمنون بالله تعالى، ويؤمنون كذلك بما أنزل على إبراهيم عليه السلام، فكان في هذه الفاء إلماح إلى ذلك.

يقول أبو حيان "مناسبة هذه الآية لما قبلها ظاهرة .. فإنّ اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة طعنوا في نبوّة رسول اللّه ﷺ وقالوا: بيت المقدس أفضل وأحق بالاستقبال، لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جميع الأنبياء، فأكذبهم اللّه في ذلك"(٦).

ثم تحدث عن البيت الحرام حديثا تاريخيا، بين فيه أسبقيته، وأحقيته بالتوجه إليه في العبادة والحج، بادئا بالتأكيد، مستعملا له "إن" واللام الداخلة على الخبر

(٥) في ظلال القرآن ٤٣٤/١.
(٦) البحر المحيط ٢٦٧/٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"للذي"، لما يفيده التوكيد هنا من إسكات المجادلين، وإقناع المستمعين والقارئين بأسبقية هذا البيت وأوليته، ومن ثم أفضليته وجدارته بأن يتوجه إليه الناس – بما فيهم بنو إسرائيل – في عباداتهم وشعائرهم.

كما جاء حديث القرآن عن البيت الحرام مشتملا على عبارات وأساليب وأسبابا تفيد تعظيمه وتقديمه على غيره من البيوت، بما فيها بيت المقدس، ردا على الأسباب التي يفضل بها اليهود بيت المقدس على غيره، على النحو التالي:

أولا– إيثار التعبير عنه بـ "**أَوَّل بَيْتٍ**"، مع تأكيد ذلك بـ "إن" واللام للقطع بأنه الأول، ولم يسبقه في ذلك أي بيت من البيوت، وفيه تأويلان: أحدهما: أنه أول بيت وضع للعبادة، حيث كانت البيوت قائمة على الأرض قبله، والآخر: أنه أول بيت وضع فعلا، وأنه يسبق الأرض بآلاف السنين، فقد "أخرج ابن جرير، وابن المنذر والطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن عمرو قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفي سنة، وكان إذ كان عرشه على الماء زبدة بيضاء، وكانت الأرض تحته كأنها حشفة، فدحيت الأرض من تحته، وأخرج ابن المنذر عن أبي هريرة قال: إن الكعبة خلقت قبل الأرض بألفي سنة، وهي من الأرض إنما كانت حشفة على الماء عليها ملكان من الملائكة يسبحان، فلما أراد الله أن يخلق الأرض دحاها منها، فجعلها في وسط الأرض"(٧).

والذي يبدو لي أنه لا خلاف بين الرأيين في أولية المسجد الحرام وسبقه على غيره من المساجد، إلا أن مجيء الآية في سياق الرد على اليهود القائلين بتفضيل بيت المقدس يجعل الرأي الأول أولى بالقبول عندي.

ثانيا– تنكير "**بَيْت**" وتنوينه، لما فيهما من التعظيم بالمعنى والجرس.

ثالثا– بناء الفعل "**وُضِعَ**" لما لم يسم فاعله مع تعليقه بالناس في قوله "**وُضِعَ لِلنَّاسِ**"، حيث يبدو لي في البناء لغير الفاعل الحقيقي، إشارة إلى أن الآمر ببنائه هو الله عزوجل، لأن ذلك أمر معلوم لا يحتاج إلى التصريح به – يؤيده قراءة الفعل "وضع"

(٧) الدر المنثور في التفسير بالمأثور ٦٧٢/٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالبناء للفاعل[٨] – كما يلمح إلى أن كثيرين اشتركوا في إنشائه، "فقد ورد في بعض الآثار أن أول من بنى البيت الملائكة، وقد بنوه قبل آدم عليه السلام بألفي عام، وعن مجاهد وقتادة والسدي ما يؤيد ذلك، وحُكي أن بناء الملائكة له كان من ياقوتة حمراء، ثم بناه آدم، ثم شيث، ثم إبراهيم، ثم العمالقة، ثم جُرهم، ثم قصي، ثم قريش"[٩]، وذلك كله يعطي هذا البيت مكانة وقدرا وشرفا يفوق به غيره، ولا يتوفر لبيت سواه.

وعُلق الفعل "وُضِعَ" بـ "النَّاسِ" عامة، ليشمل كل بني آدم بما فيهم اليهود، الذين يحطون من شأنه ويفضلون المسجد الأقصى عليه.

رابعا– التصريح بالأسباب والبراهين التي تجعله مفضلا ومقدما على غيره من المساجد والبيوت، وذلك في قوله "**مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ. فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا**"، وهي ميزات لا تتوفر كلها في غيره.

خامسا– الأمر بالحج إليه، وبيان أن ذلك من الفرائض التي يكفر من لم يقم بها مع قدرته عليها، وذلك في قوله تعالى "**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**"، حيث يلفت النظر استعمال النظم الحكيم "لام الإيجاب والإلزام في قوله "لله"، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً باستعمال الحرف "على"، بما يدل عليه من استعلاء يوحي بشدة الوجوب والإلزام، كما أنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ... فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيداً لحقه، وتعظيماً لحرمته"[١٠].

سادسا– تسمية من يرفض الحج إليه كافرا، مستعملا لذلك أسلوب الشرط، لما فيه من إيضاح وبيان، لتكونه من جملتين، إحداهما لفعل الشرط، والأخرى لبيان الجزاء المترتب عليه، ففي قوله "**وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ العالمين**" أوثر التعبير بلفظ الكفر عن ترك الحج؛ تأكيداً لوجوبه، وتحذيرا من تركه مع القدرة عليه، وفي قوله

---

(٨) إرشاد العقل السليم ١/ ٤٢٠.
(٩) روح المعاني ٢/ ٢٢١.
(١٠) نظم الدرر ١/ ٤٩٧ (بتصرف).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ العالمين" من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة، وخذلانه، وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه، ويرجف له قلبه، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم، ومصلحتهم، وهو تعالى شأنه، وتقدس سلطانه غني، لا تعود عليه طاعات عباده بأسرها بشيء من النفع"(١١).

في هذا السياق المفعم بتعظيم البيت الحرام- الذي يقلل اليهود من شأنه- يأتي التعبير عن "مكة" بلفظ "بَكَّةَ" في قوله "إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ"، لما يلي:

أولا- التحديد الدقيق، والحصر الصارم، لموقع أول بيت وضع للناس ومكانه، وبذلك يمتنع اليهود وغيرهم من التأويل وفق الهوى، أو التفسير على غير الوجه المراد، إذ لو قيل: إن أول بيت وضع للناس للذي بناه إبراهيم - من غير أن تذكر "بكة" - لقال اليهود إنه بيت المقدس؛ حيث إن التاريخ يقول: إن الذي بناه أيضا هو إبراهيم، وإن بينه وبين المسجد الحرام أربعين سنة، فقد روي أنه عليه السلام سُئل عن أول بيتٍ وضع للناس، فقال: "المسجدُ الحرام ثم بيتُ المقدس" وسئل: كم بينهما؟ فقال: "أربعون سنة"(١٢).

ثانيا- الإشارة إلى أن ازدحام الناس في المكان الذي يقع فيه هذا البيت من قديم الزمان دلالة على شرفه وتميزه عن المساجد التي ليس فيها مثل ذلك الزحام.

ثالثا- الإلماح إلى أن على اليهود أن يزاحموا الناس في بلده، وألا يتعالوا عن ذلك أو يتكبروا، وألا يقوموا بالتباكي في مكان آخر.

رابعا- أن الحج لا يكون إلا إلى البيت الواقع في البلد المسمى بهذا الاسم، ولا يكون إلى بيت آخر غيره، حتى لو كان بانيه إبراهيم عليه السلام.

*****

(١١) السابق.
(١٢) إرشاد العقل السليم ١/٤٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الثاني:

- في سورة الأنعام يقول تعالى (وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ)(الأنعام ٩٢).

وهو موضع يأتي في سياق مواجهة القرآن الكريم لما كان يزعمه المشركون في معرض العناد واللجاج من أن الله لم يرسل رسولا من البشر، ولم ينزل كتابا يوحي به إلى بشر. بينما كان إلى جوارهم في الجزيرة أهل الكتاب من اليهود، ولم يكونوا ينكرون عليهم أنهم أهل كتاب، ولا أن الله أنزل التوراة على موسى - عليه السّلام - إنما هم كانوا يقولون ذلك القول في زحمة العناد واللجاج، ليكذبوا برسالة محمد ﷺ لذلك يواجههم القرآن الكريم بالتنديد بقولتهم: ما أنزل الله على بشر من شيء، كما يواجههم بالكتاب الذي جاء به موسى من قبل، في قوله تعالى قبل الآية التي معنا: "وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ"(الأنعام ٩١).

ثم يمضي السياق يحكي- في الآية التي بين أيدينا- شيئا عن الكتاب الجديد، الذي ينكر الجاحدون أن يكون الله تعالى قد نزله، فإذا هو حلقة مسبوقة جاءت قبلها حلقات، فليس بدعا من الكتب التي ينزلها الله على من يشاء من رسله الكرام(١٣).

وكما جاء السياق في الموضع السابق معظما شأن أول بيت وُضع للناس عظّم النظم الحكيم في هذا الموضع شأن القرآن بما يلي:-

أولا- تعريفه باسم الإشارة "هذا"، لأن الحديث مسوق للرد على من ينكر نزوله من عند الله تعالى، ومن ثم كان التعبير عنه بالإشارة لزيادة تمييزه وتقويةً لحضوره في

(١٣) في ظلال القرآن ٢/١١٤٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميع الأذهان"[١٤]، ونكر "كِتَابٌ" ونونه، لما يفيده كلاهما من التعظيم بالمعنى والجرس، و"جعل "كتاب" الذي حقه أن يكون مفعول "أنزلنا" مسندا إليه، ونصب فعل "أنزلنا" لضميره، لإفادة تحقيق إنزاله بالتعبير عنه مرتين، وذلك كله للتنويه بشأن هذا الكتاب"[١٥]، كما جاء بجملة "أنزلناه" معترضة بين المبتدأ "هذا" وخبره الثاني "مبارك" للاهتمام بكونه منزلا من عند الله عزوجل، تأكيدا لقدسيته، وزيادة في تعظيمه.

ثانيا- الإخبار عنه بأنه " **مُبَارَكٌ**" و "**مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ**"، لما في هذين الخبرين من براهين قاطعة على أنه منزل من عند الله تعالى، إذ البركة الواسعة - المستفادة من تنكير الخبر، الدال على عجز العبارة عن الإحاطة بأبعادها - لا تكون في شيء إلا بأمر الله ومن عنده سبحانه، إذ هي خارجة عن إمكانات البشر وقدراتهم.

كما أن تصديق هذا الكتاب لما سبقه من الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله السابقين لهو دليل شاهد على صدق محمد ﷺ، ولا يخفى ما في ذلك من دعوة اليهود إلى الإيمان به، واتباع من نزل عليه، يقول البقاعي ("مبارك" أي كثير الخير ثابت الأمر، لا يقدر أحد من الخلق على إنكاره لإعجازه، ولتعلم أهل الكتاب خصوصاً حقيقته بتصديقه لكتابهم لأنه "مصدق الذي بين يديه" أي كله من كتبهم وغيرها، فيكون أجدر لإيمانهم به، وتعلم جميع أهل الأرض عموماً ذلك بذلك وبإعجازه) [١٦].

وفي عبارة " **بَيْنَ يَدَيْهِ**" استعارة، شبه فيها الكتاب بإنسان، ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو اليدان، على سبيل الاستعارة المكنية، التي تجعل الكتاب كائنا حيا، يعي ما يقال، ويهتم بإزالة ما في صدور المخاطبين من وساوس وهواجس، ويعمل على محوها بكل وسائل الترغيب والترهيب، مما يدل على أنه ذو أثر قوي في التربية، وذو منهج واضح في الدعوة والتوجيه.

---

(١٤) يراجع نظم الدرر ٦٧٣/٢، التحرير والتنوير ٢١٦/٦.
(١٥) التحرير والتنوير ٢١٦/٦.
(١٦) نظم الدرر ٦٧٣/٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في هذا السياق أخبر النظم الحكيم أن الغرض من إنزال هذا الكتاب المبارك، الجامع لما في الكتب السابقة هو إنذار مكة وما حولها من القرى والمدن وذلك في قوله تعالى "**وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا**".

وفيه أوثر التعبير عن "**مكة**" بـ "**أم القرى**"، لأنها أعظم البلدان، كما أنها مركز الأرض، إذ منها اندحت وانبسطت- كما سبق بيانه- وفيها بيت الله العتيق، الذي يحج إليه الناس من جميع أنحاء البلدان، ومن ثم يجتمعون فيها، كما أنها مولد الرسول الخاتم، الذي أمر بإنذار العالم كله، منطلقا في ذلك من مركز الأرض وأوسط مكان فيها.

وفي التعبير بـ "**الأم**" استعارة تصريحية تمثيلية، شبهت فيها مكة بالأم، ثم حذف المشبه واستعير الأم لمكة، على سبيل الاستعارة التصريحية التمثيلية، المؤذنة باجتماع القرى حولها، كما يجتمع الأبناء حول أمهم، ولا يخفى ما في التعبير كذلك من مجاز مرسل علاقته المحلية، إذ المقصود بالإنذار هو سكان أم القرى وأهلها، من القرشيين وغيرهم، و فيه إلماح إلى فضل أهلها وساكنيها، وتميزهم عن غيرهم.

وأوثر التعبير بـ "**القرى**"، مع أن مكة من المدن، للإشارة إلى أنها تجمع بين مزايا المدن وفضائل القرى، يقول البقاعي "المدن مواضع الحكمة، والبوادي مواطن لظهور الكلمة، ولما كانت مكة "أم القرى" مدينة، وهي مع ذلك في بلاد البادية، جمعت الأمرين وفازت بالأثرين"[١٧]، هذا بجانب ما في مادتها من دلالة على الجمع و الإمساك[١٨]، مما يشير إلى أنها حاضنة مُجَمِّعة.

وعبر عن التبليغ بـ "**الإنذار**"، لما فيه من التخويف والتحذير، المناسب لما هم فيه من بعد عن الصواب، وتمسك شديد بالباطل، ولكونه أشد أثرا، وأسرع نتيجة، وأقوى زجرا.

وهو أمر جيء به في صورة الخبر، لما لهذه الطريقة التعبيرية من إيحاء بأن هذا الموضوع من المسلمات والبدهيات التي لا تحتاج إلى تكليف، والتي ينبغي

---

(١٧) نظم الدرر ١١١/٤.
(١٨) السابق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحرص على القيام بها، لأن هذا الكتاب لم ينزله الله تعالى على رسوله ﷺ ليحتفظ به لنفسه، وإنما أنزله ليبلغه إلى الناس في شتى بقاع الأرض.

ومن ثم كان في إيثار التعبير عن مكة بـ "أم القرى" في هذا الموضع من الدلالات ما يلي:

أولا- أن إنذار "**أم القرى**" (**مكة**) يجعل إنذار غيرها من السهولة بمكان، إذ من المعلوم أن ما تعرفه الأم يسهل على الأبناء معرفته والعلم به.

ثانيا- أن في البدء بإنذارها ما يوفر كثيرا من جهود الرسول ﷺ، إذ تسري الأخبار منها إلى شتى بقاع الأرض بسلاسة وسهولة، ومن ثم كان في عطف "**مَنْ حَوْلَهَا**" عليها إلماحٌ إلى ذلك.

ثالثا- أن الكتاب الذي ورد اسم "أم القرى" في سياق الحديث عنه إنما نزل بلغتها، وبلسان أهلها، ومن ثم فإن فهمها له سيكون أدق، وإفهام غيرها له سيكون من صميم عملها، وهو ما سيأتي مزيد من بيانه في الموضع القادم.

رابعا- أن انتشار هذا الكتاب المبارك وما فيه سيكون مضمونا، ومن ثم سيجتمع الناس عليه، كما يجتمعون في أم القرى.

*****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الثالث:

- في سورة الشورى يقول تعالى "**وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ**"(الشورى٧).

هذا الموضع قريب من سابقه، إذ يأتي تعبير النظم الحكيم فيه عن "مكة" بـ "أم القرى" في سياق حديث سورة "الشورى" عن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبينا محمد ﷺ.

إذ بدأت السورة بالأحرف المقطعة "**حم.عسق**"(الشورى١-٢)، وهي الحروف التي تتكون منها كلمات القرآن وجمله وآياته وسوره، وهي في الوقت نفسه الحروف التي يتحدث بها أهل أم القرى، الذين جاء القرآن الكريم بلسانهم، كما توضح ذلك الآية التي بين أيدينا.

ثم جاء التشبيه في قوله تعالى "كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ"(الشورى٣)، لإبراز التماثل والتطابق والمساواة بين ما يوحي به الله تعالى إلى نبيه ﷺ وما أوحى به إلى جميع الأنبياء والرسل السابقين، لأن الهدف واحد، وهو أن يكون هذا الوحي زادا يتزود به أنبياء الله تعالى ورسله في مسيرتهم الدعوية.

ثم ينتقل السياق إلى الحديث عمن أنزل هذه الكتب وهو المولى سبحانه وتعالى، إبرازا لحكمته وجبروته وعظمته، وعفوه وقدرته على الذين يخالفون ما أوحى به، وذلك في قوله "اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ. تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"(الشورى٣-٥).

ثم يُمهد للآية التي معنا بالحديث عن الذين اتخذوا من دون الله سبحانه وتعالى أولياء في قوله "وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ"(الشورى٦)، و"هي جملة معطوفة على جملة "لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأرض" بعد أن أفيد ما هو كالحجة على أن لله ما في السماوات وما في الأرض من قوله "وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ..."، فالمعنى: قد نهضت حجة انفراده تعالى بالعزة والحكمة والعلو والعظمة وعَلِمها المؤمنون فاستغفرت لهم الملائكة، وأما الذين لم يبصروا تلك الحجة وعَميت عليهم الأدلة فلا تهتم بشأنهم، فإن الله حسبهم وما أنت عليهم بوكيل، فهذا تسكين لحزن الرسولﷺ من أجل عدم إيمانهم بوحدانية الله تعالى"[١٩]، وفي الوقت نفسه مقدمة لما سيؤمر به الرسولﷺ من الدعوة في الآية التي بين أيدينا.

والتي بدأت بقوله "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا"، وهي جملة معطوفة على قوله "كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ..." باعتبار ما بينهما من مغايرة، إذ الأولى في السياق عامة، بينما الجملة التي معنا تعد نوعا مما أوحى به الله تعالى إلى الرسول والذين من قبله، ومن ثم فإن الحديث عما أوحى به الله تعالى إلى رسولناﷺ يعد من باب ذكر الخاص بعد العام، لما له من خصوصية، أوجبت ذكره مرة ثانية على سبيل التفصيل والبيان.

وجيء بالكاف التي تفيد التشبيه لتأكيد المماثلة- التي سبق ذكرها في التشبيه الأول- بين ما أوحى به الله تعالى إلى الرسولﷺ وما أوحى به إلى الرسل السابقين، وليبين أن الاختلاف ليس إلا في اللسان (اللغة) فقط.

وفي هذه الجملة من خصائص النظم ما يلي:

أولا- إسناد فعل الوحي إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى بصيغة التعظيم "**أَوْحَيْنَا**" للإشعار بعظمة المُوحَى به وهو القرآن الكريم، وفي إعادة التعبير بفعل الوحي بعد ذكره سابقا في قوله "كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ..." ضرب من "التأكيد لتقرير معنى الوحي أفضل تقرير"[٢٠]، وفي إسناد الفعل إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى بصيغة التكلم التفات من الغيبة إلى التكلم، حيث كان الظاهر أن يقال "وكذلك أُوحَى إليك قرآنا..."، وللتعبير به فائدة عامة تتمثل في تطرية السامع وتنشيط ذهنه، ليلتقط ما في التعبير من دقائق وأسرار، وأنه أفضل من سوق الكلام وجريانه على طريقة واحدة، وفائدة

(١٩) التحرير والتنوير ١٠٦/٢٥.
(٢٠) السابق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاصة تتمثل هنا في لفت الانتباه إلى أن الله تعالى من وراء إنزال القرآن على رسوله محمد ﷺ باللغة العربية دون غيرها من اللغات حِكَما وأسرارا ومصالحَ قد يظهر بعضها للناس وقد يغيب بعضها الآخر عنهم، وأن ذلك لا يعني اختلافه عن الوحي الذي أنزله الله تعالى على الرسل السابقين، لأن الجميع خرج من مشكاة واحدة.

ثانيا- تنكير "**قُرْآنًا**" وتنوينه لما يفيده ذلك من التعظيم والتفخيم بالمعنى والجرس، ولكونه معلوما معروفا للناس، إذ لا يَحمِل هذا الاسمَ من الكتب غيرُه.

ثالثا- وصفه بقوله "**عربيا**"، ليدلف منه إلى بيان السبب في إيثار العربية على غيرها لتكون لغة لهذا القرآن الحكيم.

في هذا السياق أخبر النظم الحكيم أن الغرض من إنزال القرآن باللغة العربية هو إنذار "أم القرى ومن حولها"، والتحذير من يوم القيامة، وذلك في قوله تعالى "**لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ**"، معبرا عن التبليغ بالإنذار لما سبق بيانه في الموضع السابق من كونه أعظم أثرا، وأقوى زجرا لمن كانوا على شاكلة من بُعث إليهم رسول الله ﷺ.

وفيه أوثر التعبير عن "مكة" بـ "**أُمّ القُرى**" لما يلي:

أولا- الإشارة إلى ما تمتاز به لغة أهلها على غيرها من لغات الناس، "فقد كانت لغة أم القرى آنذاك بلغت نضجها، وأصبحت صالحة لحمل هذه الدعوة والسير بها في أقطار الأرض"(٢١).

ثانيا- أن يسهل علي أهلها فهمه، وإدراك ما فيه، لأنه إنما نزل بلغتهم، التي بلغوا فيها شأوا بعيدا، وصاروا يملكون زمامها.

ثالثا- أن إنذار سكان أم القرى بهذا القرآن العربي، سيساعد في إنذار غيرهم؛ لأن لغتهم سيدة اللغات وأجمعها وأكثرها انتشارا. يقول صاحب الظلال "وحكمة إنذار الرسول أم القرى - أي كبراها أو عاصمتها - أن تكون مركزا تُبلَّغ منه الرسالة إلى الأطراف، فلا تبقى حجة ولا عذر فيها لأحد"(٢٢).

(٢١) ينظر في ظلال القرآن ٥/٣١٤٤ (بتصرف).
(٢٢) ينظر في ظلال القرآن ٥/٢٧٠٤ (بتصرف).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رابعا- أن عجزهم- وهم على هذه الحالة اللغوية- عن معارضة القرآن- الذي نزل بلغتهم- سيترتب عليه عجز غيرهم من باب أولى.

خامسا- ربما يكون السبب في الاقتصار هنا على إنذار أهل مكة ومن حولها أنهم المقصودون بالرد عليهم لإنكارهم رسالة محمد ﷺ[٢٣].

سادسا- في عطف "**يوم الجمع**" على "**أم القرى**" إلماح إلى أن لغة الناس في يوم القيامة ستكون لغة أم القرى وأهلها، وفي إعادة الفعل "تنذر" معه زيادة تهويل من أمره، لأن تخصيصه بالذكر بعد عموم الإنذار يقتضي تهويله وتفخيمه، ليتم الحذر منه، ويتحقق الاستعداد له.

•••••

(٢٣) ينظر التحرير والتنوير ٢٥/١٠٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الرابع:

- في سورة الفتح يقول عزوجل "وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا" (الفتح ٢٤).

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد، ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي في الدلائل عن أنس قال: لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله ﷺ وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة في السلاح من قبل جبل التنعيم، يريدون غرة رسول الله ﷺ فدعا عليهم، فأخذوا، فعفا عنهم، فنزلت هذه الآية[٢١].

وهذا الموضع يأتي في سياق حديث سورة الفتح عن صلح الحديبية، وما كان فيه من إنعام من الله تعالى على رسوله وعلى المؤمنين معه، حيث أنزل الله تعالى فيه السكينة على قلوب المؤمنين، ووعدهم فيه بالفتح القريب، وكف أيدي المشركين عنهم، ويسر لهم بسببه مغانم كثيرة، "لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا. وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا. وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا. وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا" (الفتح ١٩-٢١).

ثم انتقل السياق إلى بيان السنة الإلاهية التي تسير وفقها حروب المسلمين مع غيرهم من الكافرين "وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا. سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الفتح ٢٢-٢٣).

فقوله تعالى "وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" يشير إلى أن ما ذكرته الآية من فرار المشركين وتوليهم على أعقابهم عند مواجهة المؤمنين "سنة دائمة لا تتبدل، ولكنها قد تتأخر إلى أجل، لأسباب قد تتعلق باستواء المؤمنين على طريقهم واستقامتهم

(٢١) الدر المنثور ٤٨٨/١٣.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستقامة التي يعرفها اللّه لهم، أو تتعلق بتهيئة الجو الذي يولد فيه النصر للمؤمنين والهزيمة للكافرين، لتكون له قيمته وأثره، أو لغير هذا وذلك مما يعلمه اللّه، ولكن السنة لا تتخلف ولا تتبدل"(٢٥).

ثم يأتي قوله تعالى "**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**"، ليعيد التذكير بما أنعم الله تعالى به على رسوله وعلى المؤمنين بعد إبرام صلح الحديبية، حيث كانت هذه الحادثة التي كانت سببا في نزول الآية التي بين أيدينا.

والتي تبدأ بإسناد فعل الكف إلى الحق جل وعلا بعد تعريفه بالضمير الذي هو أعرف المعارف، والإخبار عنه باسم الموصول في قوله "**وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ**"، لما لذلك الأسلوب من أثر في بيان مقدار النعمة، وإيضاح فضل المنعم بها، من خلال استحضار الصورة التي وقعت فيها، وإعادة التذكير بها، فالحاصل أن أي نصر يحققه المسلمون هو محض فضل من الله تعالى، وتوفيق وامتنان منه جل وعلا.

وجاءت المقابلة بين " **أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ**" و "**أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ**" بتقديم الأولى وتأخير الثانية، لتزيد من إظهار عظمة النعمة التي أنعم الله تعالى به على الفئة المؤمنة في تلك الحادثة، وبيان مدى عظمتها، حيث انتصروا فيها على من باغتوهم من غير أن يحدث بين الفريقين أي نوع من القتال أو الاشتباك، وهو ما يؤكده قوله "**مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ**".

وكان الظاهر أن يقال: وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم من بعد أن أظفركم عليهم ببطن مكة، ولكنه قدم ذكر المكان الذي تم فيه هذا الحادث في قوله "**بِبَطْنِ مَكَّةَ**"، والذي عبر فيه عن البلد الحرام باسمه المشهور المتداول مضافا إلى كلمة "**بطن**" – بمعنى داخل مكة وفي عمقها، وليس على أطرافها – لما يلي:

(٢٥) في ظلال القرآن ٦/٣٣٢٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا- الزيادة في إيضاح مقدار ما في الكف الذي حصل في هذه البقعة من مكة من نعمة، إذ حصل في بطنها، حيث يحيط بهم أهلها من كل جانب.

ثانيا- أنه لو كان الكف قد حصل في أطراف مكة، لما كان له هذا القدر من الإنعام، إذ كان من الممكن أن يلوذ المسلمون بالخروج من مكة ويبتعدوا عنها.

ثالثا- أن ذكر "**مكة**" في هذا السياق يستدعي إلى ذاكرة المسلمين البطش والإيذاء والتنكيل والاستضعاف الذي كانوا يتعرضون له في أثناء وجودهم فيها قبل الهجرة، ومن ثم يكون الإنعام بكف أيديهم كذلك عن المشركين أمرا يستدعي التفكر والتدبر لما آل إليه حالهم من الاستضعاف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن الهوان إلى الانتصار، ومن عدم القدرة على النزال إلى ملاحقة المشركين حتى يولوا الأدبار.

•••••

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطلب الثاني

بلاغة التعبير عن "مكة" باسم "البلد"

سبقت الإشارة إلى أن النظم الحكيم عبر عن "**مكة**" باسم "**البلد**" نكرة ومعرفة ست مرات في خمسة مواضع، وسيحاول البحث التعرف على أسرار ذلك فيما يلي:

- ففي سورة البقرة يحكي القرآن الكريم دعاء رسول الله إبراهيم- عليه وعلى رسولنا أفضل الصلاة وأتم التسليم- في قوله تعالى "**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**"(البقرة ١٢٦).

وذلك عطفا على قوله تعالى في الآية السابقة من السورة "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ"(البقرة ١٢٥)، والتي صرح فيها ربنا سبحانه وتعالى بجعل البيت الحرام- الذي يقع في مكة المكرمة - "**مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا**"، ومعنى "**مَثَابَةً**": أنهم يأتون إليه من كل مكان، ولا يقضون منه وطرا، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه[٢٦]، ومعنى "**أَمْنًا**": أنه يحرم إيذاء أو تخويف من دخله وأوى إليه[٢٧]، وقدم الأول وأخر الثاني، لأن الثاني لا يُعرف ولا يُتحقق من حصوله إلا بحصول الأول.

وهو ما أغرى إبراهيم عليه السلام بأن تنسحب مزية الأمن والاجتماع على البلد الذي يقع فيه بيت الله الحرام، فما كان منه إلا أن ابتهل إلى الله تعالى بهذا الدعاء، الذي عبر فيه عن مكة بقوله "**بَلَدًا آمِنًا**".

وبدأ ابتهاله وتضرعه بقوله "**رَبِّ**" مؤثرا حذف أداة النداء، لما يُشْعِر به ذلك من قرب المنادَى سبحانه وتعالى، وشدة احتياج الداعي إلى من يناديه، وشعوره بأنه

---

(٢٦) الدر المنثور ٦١٦/١.
(٢٧) السابق (بتصرف).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محتاج إليه مقبل عليه، مما يغنيه عن ذكر الأداة التي قد يحول ذكرها دون هذه الإشارات في مقام الدعاء والابتهال، واختيار اسم "الرب" ليُنادَى، له دلالته على ثقة في إجابة دعائه، لما يشع منه من معاني الرعاية والحماية وقضاء المصالح[٢٨]، يضاف إلى ذلك: أن هذا الاسم – بما يدل عليه من (التربية)- هو المناسب للدعاء بجعل هذا البلد آمنا لما لذلك من علم بأن الأمن معين على الاجتهاد في العبادة والحج إلى هذا البيت، وفى إضافته إلى ضمير المتكلم إشارة إلى إعلانه عن أنه ليس له من يرعاه ويحقق دعاءه غيره سبحانه، وفيه من التوسل والاستعطاف ما فيه.

وقوله "اجْعَلْ" أسلوب أمر غرضه التوسل والتضرع، وإسناده إلى ضمير الرب سبحانه وتعالى فيه إقرار بقدرته وإثارة لتحقيق مطلبه، وبرهان ثقة في ربه ومولاه.

ثم استعمل إبراهيم عليه السلام اسم الإشارة "هذا" بدلا من تسمية الموضع القائم به حين دعائه، و "هو المكان الذي جعل به امرأته وابنه وعزم على بناء الكعبة فيه، إن كان الدعاء قبل البناء، أو الذي بني فيه الكعبة، إن كان الدعاء بعد البناء، لما في ذلك من استحضار ذات المشار إليه، إذ الاستحضار بالذات مغن عن الإشارة الحسية باليد، لأن تمييزه عند المخاطب مغن عن الإشارة إليه، فإطلاق اسم الإشارة حينئذ واضح.

وأصل أسماء الإشارة أن يستغني بها عن زيادة تبيين المشار إليه تبيينا لفظيا، لأن الإشارة بيان ... وقد عدل هنا عن بيان المشار إليه اكتفاء عنه بما هو واقع عند الدعاء، فإن إبراهيم دعا دعوته وهو في الموضع الذي بنى فيه الكعبة، لأن الغرض ليس تفصيل حالة الدعاء إنما هو بيان استجابة دعائه وفضيلة محل الدعوة وجعل مكة بلدا آمنا ورزق أهله من الثمرات، وتلك عادة القرآن في الإعراض عما لا تعلق به بالمقصود"[٢٩]، ويبدو لي في ذلك رجاؤه الشديد بزيادة اختصاص هذا البلد بمزية الأمن والأمان، لما فيه من حرم جعله الله تعالى مثابة للناس من كل مكان.

(٢٨) المفردات في غريب القرآن– مادة رب – ٢٦.
(٢٩) التحرير والتنوير ٦٩٤/١ وما بعدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وربما يكون السر في عدم ذكر إبراهيم عليه السلام اسم هذه البقعة من الأرض أنها لم تكن معروفة بعد، ولم يكن ها اسم تذكر به، كما أن تسميتها في دعائه قد يضيق واسعا.

وفي تنكيره "**بلدا**" وتنوينه ضرب من التعظيم والتفخيم يوحي به اللفظ والجرس معا، فكأنه عليه السلام يبتهل بأن يكون لهذا البلد شأن عظيم، ومكانة مهيبة، وفي جرس "**آمنا**" المبدوء بحرف المد والمختوم به ما يشعر برغبته في أن يبلغ الأمن في هذه البقعة منتهاه، وألا يماثلها فيه بلد آخر.

ولا يخفى ما فيه من مجاز عقلي جاء من إسناد ما يجب أن يكون للفاعل إلى المفعول، إذ المعنى الحقيقي: آمنا أهله، غير أن ما جاء عليه التعبير القرآني المحكي على لسان الخليل عليه السلام يبرز لنا رغبته في أن يشعر بنعمة الأمن كل شيء في هذا البلد، سواء في ذلك البشر وغير البشر.

واقتصر دعاؤه لهذا البلد على أن يكون آمنا دون أن يكون مثابة، لأن الأول سبب في الثاني، ولأن وجود البيت الحرام فيه سيجعل منه مثابة ولا شك، ومن ثم اقتصر ابتهاله على طلب الأمن في أعلى مستوياته، يقول صاحب التحرير والتنوير: "ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوءة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة، ويقتضي العدل والعزة والرخاء، إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع ... وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام"(٣٠).

ثم سأل عليه السلام ربه سبحانه وتعالى أن يرزق أهل هذا المكان - وهم في ذلك الوقت زوجه هاجر وولده إسماعيل- من الثمرات دون الأطعمة والأغذية؛ لأن طلب رزقهم من الثمرات متضمن طلب رزقهم بالأطعمة والأغذية من باب أولى، إذ الأولى تأتي بعد الثانية، كما أنها عنوان رفاهية وغنى وعدم احتياج، وكان دعاؤه

(٣٠) التحرير والتنوير ١/٦٩٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بذلك ليحدث الاستقرار بها وعدم الرحيل عنها، إذ الأمن مع الغذاء من أسباب الاستقرار والبقاء.

وقوله "**مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ**" بدل بعض من قوله "**أهله**" يفيد تخصيصه، لأن أهله عام إذ هو اسم جمع مضاف وبدل البعض مخصص.

وخص إبراهيم المؤمنين بطلب الرزق لهم حرصا على شيوع الإيمان لساكنيه؛ لأنهم إذا علموا أن دعوة إبراهيم خصت المؤمنين تجنبوا ما يحيد بهم عن الإيمان، فجعل تيسير الرزق لهم على شرط إيمانهم باعثا لهم على الإيمان، أو أراد التأدب مع الله تعالى فسأله سؤالا أقرب إلى الإجابة"[٣١].

ويجيء قوله سبحانه وتعالى "**وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**" بعد دعاء إبراهيم عليه السلام لحث أهل هذا البلد بصفة خاصة، وحث أهل كل بلد بصفة عامة على شكر نعم الله تعالى عليهم- لا سيما الأمن والطعام- بالتمسك بتعاليمه، وعدم الكفر بربوبيته، لأنه إذا كان هذا وعيدا لأهل البلد الحرام فإنه وعيد لغيرهم من باب أولى.

•••••

[٣١] التحرير والتنوير ٦٩٧/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وفي سورة إبراهيم يقول تعالى "**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**) (إبراهيم ٣٥-٣٧).

وهو موضع يأتي في سياق تسجيل القرآن على أهل مكة، الذين أنعم الله تعالى عليهم بسكنى البلد الحرام، وأكرمهم بجوار بيته العتيق، ثم هم يتحولون من الإيمان إلى الكفر، ومن عبادة الواحد الديان إلى عبادة الأصنام، وفيه "يصور لهم أباهم إبراهيم عليه السلام في هذا المشهد الخاشع الضارع المبتهل إلى الله تعالى؛ ليرد الجاحدين إلى الاعتراف، ويرد الكافرين إلى الشكر، ويرد الغافلين إلى الذكر، ويرد الشاردين من أبنائه إلى سيرة أبيهم لعلهم يقتدون بها ويهتدون"[٣٢].

كما أنه مشهد يعيد إلى الأذهان الحالة التي كانت عليها تلك البقعة من قفر وجدب، قبل أن يدعو لها إبراهيم عليه السلام بهذا الدعاء، الذي استجابه الله عزوجل منه، وأنعم عليهم بما يرفلون فيه من أمن وخير.

وفي هذا الدعاء عبر إبراهيم عليه السلام عن مكة بقوله "البلد" "**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا**" ، ثم عبر عنها مرة ثانية بـ "الوادي" في قوله "**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**"، وهو مع كل تعبير منهما يدعو لها بما يناسب ما عبر به عنها.

فعندما عبر عنها بـ "**البلد**" المعرّف بأل التي للعهد، والمسبوق باسم الإشارة، الدالين على تحديد المشار إليه تحديدا دقيقا، وحضوره في الذهن حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد – كما سبق بيانه في الموضع السابق– دعا له بأن يكون "آمِنًا"، بما في جرسه من إلماح إلى رغبته في أن يصل هذا البلد تحديدا في الأمن درجة لا

(٣٢) في ظلال القرآن ٤/٢١٠٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يصل إليه فيها غيره من البلدان، وبما فيه من مجاز عقلي دال على رغبته في ان تعم نعمة الأمن كل شيء في هذا البلد، سواء في ذلك البشر وغير البشر. ولم يسأل له غير الأمن، لأن ما سواه لا يعد شيئا بدونه.

ولم يشأ أن يسميه لأنه لما يكن معروفا باسم معين، ولما تتضح حدوده وآفاقه، كما أن تسميته يمكن أن تضيق واسعا، أو تضع له حدودا، فيكون في ذلك نوع من الإضرار به وبساكنيه، فذكره بلفظ "البلد" يعطي له قدرا أوسع من المساحة المتمتعة بالأمن والأمان.

يقول صاحب الكشاف "فإن قلت: أي فرق بين قوله "اجْعَلْ هذا بَلَداً آمِناً"، وبين قوله "اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً"، قلت: قد سأل في الأوّل أن يجعله من جملة البلاد التي يأمن أهلها ولا يخافون، وفي الثاني أن يخرجه من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً"[٣٣] يؤيده التعبير عنه بـ "الوادي" والذي سيتم بيان ما فيه بعد قليل.

ثم عطف على الدعاء لهذا البلد الدعاءَ لساكنيه من أبنائه وذريته بصفة خاصة، والدعاء لساكنيه من غيرهم بصفة عامة، في قوله "**وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ. رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ**" وهو دعاء يبدو فيه تسليم إبراهيم المطلق لربه، والتجاؤه إليه في أخص مشاعره، فهو يدعوه أن يجنبه الله عبادة الأصنام هو وبنيه، لما شهده من إضلالها كثيرا من الناس، كما يبدو فيه عطفه وحلمه ورحمته بمن عصى من نسله، إذ يطلب من الله تعالى أن يكلهم إلى عفوه ورحمته، لا إلى عذابه وعقابه، ولا يخفى ما فيه من إلماح إلى ما لهذا الدعاء من منزلة ومكانة عند الله تبارك وتعالى، وما له من أثر في حفظ هذا البلد، والصبر على ساكنيه.

وعندما عبّر إبراهيم عليه السلام عن مكة بـ "الوادي" في قوله "**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**" دعا له بأن يكون مأهولا

(٣٣) الكشاف ٢/٥٥٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالسكان عامرا بالخيرات " **فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ**".

وفي إيثار كلمة "**وَادٍ**" نكرةً إلماح إلى كونه مجهولا غير معروف، إذ ليس فيه أحد غير زوجه وولده، ولا يتوقع أن يعرفه أحد، لخلوه من أسباب الحياة، التي عبر عنها وصفُه له بقوله "**غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**" الدال على خلوه من الماء والزرع، اللذين يُعتمد عليهما في السكنى والمعيشة، وهو ما يرسم للمخاطبين صورة هذا الوادي عند دعاء إبراهيم عليه السلام له، لتتم مقارنتها بالصورة التي هو عليها عند نزول الآيات فيحصل المقصود من توحيد الله تعالى، والتخلي عن عبادة غيره من الأصنام التي لا تضر ولا تنفع.

وفي إعادة نداء "**الرب**" سبحانه وتعالى في صدر هذا الابتهال، وعدم الاكتفاء بذكره سابقا ما يشعر بشدة إشفاقه وخوفه على أهله من تركهم في هذا المكان على الحالة التي صورها في قوله "**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ**"، كما أنه يكشف عن عجزه وعجز ذريته وعجز البشرية كلها عن تحويل هذا الوادي إلى النقيض مما هو عليه، ولا يخفى ما فيه من تذكير المخاطبين بجحودهم نعم الله تعالى عليهم وكفرهم بها.

ولو جاء التعبير عن مكة في هذا الابتهال بغير الوادي لما كان له ذلك الأثر في تحقيق ما يقصد إليه البيان القرآني من تذكير المشركين بنعم الله تعالى عليهم، والتي تستدعي عبادته وتوحيده.

*****

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

• وفي سورة النمل يقول تعالى "**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ. وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ**" (النمل ٩١-٩٢).

لما فرغ سبحانه من بيان أحوال المبدأ والمعاد أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم "**إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا**"، فهو مقول لقول محذوف دل عليه ما جاء بعده "**فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ. وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ**"، وفي حذف الأمر بالقول إلماح إلى أن إعلان التوحيد من الأمور البدهية، والتي يجب أن يراعيها الموحدون ويقوموا بها من غير أمر.

ومجيء هذه الآية عقب الحديث عن يوم القيامة وما يحدث فيه من أهوال يجعل القصر في قوله تعالى "**إِنَّمَا أُمِرْتُ**" قصرا إضافيا بالنظر إلى ما كانوا ينكرونه من البعث والحساب وغيرهما من أعمال يوم القيامة، والمعنى المراد هو توجيه النبي ﷺ إلى إعلان ثباته على عقيدة توحيد الله تعالى، وأن يداوم على الإسلام وتلاوة القرآن بغض النظر عن هدايتهم أو ضلالهم، لأن عمله الإنذار، وليس حصول الهداية لهم.

وأوثر التعبير عن هذا المعنى بأسلوب القصر، لما له من مزية تأكيد المعاني وتثبيتها في نفس المتلقي، لأنه يقوم مقام جملتين، إحداهما لإثبات المعنى للمقصور عليه، والأخرى لنفيه عما سواه تحقيقا أو إضافة، إذ من الواضح أن الرسول ﷺ كان يحمل هم هدايتهم، ويحزن حزنا شديدا، لأجل إعراضهم وكفرهم.

وفيه عبر القرآن الحكيم عن "مكة" بقوله "**هَذِهِ الْبَلْدَةِ**" مستعملا اسم الإشارة الذي للقريب، لما سبق بيانه من إفادته تحديد المشار إليه تحديد دقيقا، وحضوره في الذهن حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد.

وفي إضافته إلى اسم الجلالة بعنوان الربوبية "**رَبَّ**"، نوع من التشريف والتكريم يؤكده ويقويه الوصف بالموصول وجملته "**الَّذِي حَرَّمَهَا**"- وقرأ ابن عباس "التي حرمها" على أن الموصول وصلته صفة للبلدة- حيث أسند فعل التحريم إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى بعد التعبير عنه باسم الموصول المشعر بالتفخيم والاختصاص والتعظيم، وفيه إلماح إلى منزلة هذه البلدة عند الرب سبحانه وتعالى، حيث كان تحريمها بأمر منه عز وجل، كما أن فيه تأكيدا لما سبق بيانه في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضعين السابقين من عموم الأمن والأمان كل ربوعها، وشموله جميع من فيها وما فيها من بشر وغيرهم.

ويبدو لي في تأنيث لفظ "الْبَلْدَةِ" نوع من الإشفاق الدال على شدة حب النبيﷺ لمكة، وعميق ارتباطه بها، إذ الفطرة الإنسانية السوية والطبيعة البشرية النقية تحنو على الأنثى حنانا مفرطا، وترتبط بها ارتباطا وثيقا، بجانب ما تمثله المرأة من رمز للجمال والسحر والحنان والاحتواء والوفاء(٣٤).

وعطف جملة "وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ" على جملة الصلة يعد من باب عطف الخاص على العام، وفي ذكره مزيد من الاهتمام بشأن هذه البلدة، لكونه دالا على ورودها في الأسلوب مرتين، إحداهما على سبيل التخصيص، والأخرى على سبيل التعميم، بجانب ما في الجملتين المعطوفتين من إشعار بعلَّةِ الأمرِ وأسباب الامتثالِ به، يقول أبو السعود: "والبلدةُ هي مكَّةُ المعظمةُ، وتخصيصُها بالإضافةِ لتفخيمِ شأنِها وإجلال مكانِها ، والتعرض لتحريمهِ تعالى إيَّاها تشريفٌ لها بعد تشريفٍ وتعظيمٌ إثرَ تعظيمٍ مع ما فيه من الإشعارِ بعلَّةِ الأمرِ وموجبِ الامتثالِ به ... ومن الرَّمزِ إلى غايةِ شَنَاعةِ ما فعلُوا فيها ... وقولُه تعالى "وَلَهُ كُلُّ شَيء"... تحقيقٌ للحقِّ وتنبيهٌ على أنَّ إفرادَ مكَّةَ بالإضافةِ لما ذُكر من التَّفخيمِ والتَّشريفِ مع عُمومِ الرُّبوبيةِ لجميعِ الموجُوداتِ"(٣٥).

وتلك كلها معان أمر الرسولﷺ باستشعارها وهو يبلغ المشركين بثباته على عقيدة التوحيد، ومداومته على القيام بجميع شعائر الإسلام، بما فيها من تلاوة للقرآن وغيرها من الأعمال، "لما تتضمنه من تذكير مشركي مكة بالنعمة عليهم، ومن التعريض بضلالهم إذ عبدوا أصناما لا تملك من البلدة شيئا ولا أكسبتها فضلا ولا مزية"(٣٦)، كما أن فيها نوعا من التهديد بقدرته سبحانه وتعالى على حرمانهم منها، عقابا على كفرهم به سبحانه وتعالى.

*****

(٣٤) لعل هذا يوصل لما ذهب إليه الأدباء والنقاد في عصرنا الحديث من إيثارهم التعبير عن الوطن بالمرأة، لما تمثله من معان، ذكرت في التحليل شيئا منها.
(٣٥) إرشاد العقل السليم ٥/٢١٦.
(٣٦) التحرير والتنوير ١٩/٣٢٤ (بتصرف).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

• وفي سورة البلد يقول تعالى "**لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**" (البلد ١-٤).

وهي سورة مكية نزلت على رسول الله ﷺ وهو يعاني من إيذاء المشركين، ويكابد في سبيل إبلاغهم الرسالة التي حمله الله تعالى بها، لتربت على قلبه، وتزيد من ثباته، من خلال القسم على أن حياة جميع الناس لا تخلو من المشقة والمعاناة، بل إن الكبد على اختلاف أنواعه يحيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف " **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ**".

وهي تأتي في السياق الترتيلي بعد سورة الفجر التي ختمها الله سبحانه وتعالى بذكر الجنة جزاءً لأصحاب النفوس المطمئنة، الذين يستعذبون الكبد، ولا يضجرون من مشقة العبادة مهما كانت، في قوله تعالى "**يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي**" (الفجر ٢٧-٣٠)

وللعلماء في تقديم حرف النفي على فعل القسم في "**لَا أُقْسِمُ**" عدة أقوال:

حيث يرى ابن جرير أن "**لا**" رد لكلام تقدمها، تقديره: فلا يفعلون، أو ليس الأمر كما يزعمون ثم استأنف، وعلى هذا يكون الوقف على "**لا**" تاماً.

ويرى الزمخشري: أن "**لا**" مزيدة لتأكيد معنى القسم، كما زيدت في "**لئلا يعلم**" لتأكيد معنى العلم[٣٧] وليست لتأكيد النفي في جواب القسم؛ لأنها تزاد في الإثبات أيضا، كما في قوله تعالى "**فلا أقسم بمواقع النجوم**" (الواقعة ٧٥)، على قوله "**إنه لقرآن كريم**" (الواقعة ٧٧)[٣٨].

وقيل: هي للنفي، لكن لا لنفي الإقسام، بل لنفي ما ينبئ عنه من إعظام المقسم به وتفخيمه، كأن معنى لا أقسم بكذا: لا أعظمه بإقسامي به حقّ إعظامه، فإنه حقيق بأكثر من ذلك، وقيل: إنها لنفي الإقسام لوضوح الأمر، ... وقرأ الحسن، وابن كثير في رواية عنه، والزهري، وابن هرمز: "**لأقسم**" بدون ألف على أن اللام لام

(٣٧) الكشاف ٥٨٢/١ وما بعدها.
(٣٨) الكشاف ٦٥٩/٤، وتفسير أبي السعود ١٩٧/٢

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الابتداء، وقال أبو عبيدة وجماعة من المفسرين: إن "لا" هنا زائدة، والمعنى: أقسم بهذا البلد[٣٩].

والذي يبدو لي أن هذه الصيغة صيغة قسم درج عليها القرآن[٤٠]عندما يكون المقسم عليه أمرا مهما، يحتاج مزيدا من العناية، وفيه من المعاني ما يجب التنبه إليه، فيكون في العدول عن صيغة القسم المعتادة إلى هذه الصيغة نوع من الإرشاد إلى عظم ما يتضمنه المعنى، واختلاف شأنه عن الأمور الأخرى. والله تعالى أعلم.

كما اختلف العلماء في توجيه قوله تعالى "وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ"، فقال الواحدي: الحلّ والحلال والمحل واحد، وهو ضدّ المحرّم، أحلّ الله لنبيه ﷺ مكة يوم الفتح حتى قاتل، وقد قال ﷺ "لم تحلّ لأحد قبلي، ولا تحلّ لأحد بعدي، ولم تحلّ لي إلاّ ساعة من نهار"، قال: والمعنى أن الله لما ذكر القسم بمكة دلّ ذلك على عظم قدرها مع كونها حراماً، فوعد نبيه ﷺ أن يحلها له حتى يقاتل فيها ويفتحها على يده، فهذا وعد من الله تعالى بأن يحلها له حتى يكون بها حلاً، فالمعنى: وأنت حلّ بهذا البلد في المستقبل ... قال مجاهد: المعنى ما صنعت فيه من شيء فأنت حلّ، وقال قتادة: أنت حلّ به لست بآثم، يعني: أنك غير مرتكب في هذا البلد ما يحرم عليك ارتكابه، لا كالمشركين الذين يرتكبون فيه الكفر والمعاصي.

وقيل المعنى: لا أقسم بهذا البلد وأنت حالّ به، ومقيم فيه، وهو محلك، فعلى القول بأن لا نافية غير زائدة، يكون المعنى: لا أقسم به وأنت حالّ به، فأنت أحقّ بالإقسام بك، وعلى القول بأنها زائدة يكون المعنى: أقسم بهذا البلد الذي أنت مقيم به تشريفاً لك وتعظيماً لقدرك؛ لأنه قد صار بإقامتك فيه عظيماً شريفاً، وزاد على ما كان عليه من الشرف والعظم"[٤١].

---

(٣٩) فتح القدير ٣٦١/٧.

(٤٠) ورد فعل القسم مسبوقا بحرف النفي في الذكر الحكيم في النساء /٦٥، والواقعة /٧٥، والحاقة /٣٨، والمعارج /٤٠، والقيامة /١، والانشقاق /١٦، والبلد /١.

(٤١) فتح القدير ٤٩٦/٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول ابن القيم "وعلى كل حال فهي جملة اعتراض في أثناء القسم موقعه من أحسن موقع وألطفه، وهذا القسم متضمن لتعظيم بيته سبحانه وتعظيم رسوله ﷺ"(٤٢).

لكن الذي يبدو لي – والله تعالى أعلم – أن الرأي الثاني يتسق مع السياق الترتيلي للسورة الكريمة، كما أنه يتسق مع الموضوع الذي تتحدث عنه، من خلق الإنسان في كبد ومشقة مختلفة ومتنوعة، تثبيتا للنبي ﷺ والمؤمنين معه، حيث كانوا يعانون في هذا البلد كثيرا من ألوان الأذى وعديدا من صنوف الاضطهاد.

وقد سبق بيان ما في التعبير باسم الإشارة من دلالة على حضور المشار إليه في الأذهان حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد، بجانب ما فيه من تحديد دقيق للمقسم به مع توسيع دائرته لتشمل كل ما فيه، بالإضافة إلى ما يشعر به من التعظيم والتفخيم، الذي يقويه التعريف بلام العهد.

وفي قوله "**وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ**" بيان لسبب آخر من أسباب قسم المولى سبحانه وتعالى بهذا البلد، بجانب ما فيه من إلماح وتذكير لأهل مكة بمقدار الرسول ﷺ ومنزلته عند ربه، ليكفوا عن إيذائه وإيذاء المؤمنين به، وليفخروا بوجوده بينهم، لأنه أمان لهذه البلدة بما فيها ومن فيها، مما يذكر بقول الله تعالى "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ"(الأنفال ٣٣)، وهو ما يؤكده تكرير لفظ "بِهَذَا الْبَلَدِ" بما فيه من إظهار في مقام الإضمار، إذ الظاهر أن يقال: وأنت حل به، لكن العدول إليه كان لتأكيد أن وجود الرسول ﷺ في هذا البلد – أيا كان اسمه – يمنحه شرفا فوق شرفه، ويزيده قدرا فوق قدره.

*****

(٤٢) التبيان في أقسام القرآن ٢٤.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وفي سورة التين يقسم المولى سبحانه وتعالى أيضا بـ "مكة" معبرا عنها بـ "البلد الأمين" في قوله تعالى "**وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ. لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ**" (التين ١-٥).

حيث أقسم قبلها بـ "**التِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ**"، وللعلماء في تأويلها عدة أقوال:

إذ يرى بعضهم أن المقصود بكل من التين والزيتون: الثمرتان المعروفتان، وأن الله تعالى أقسم بهما؛ لما لهما من فوائد صحية وغذائية، ولما لهما من مزايا لا توجد في غيرهما من الأشجار[٤٣].

وروي عن ابن عباس تفسير التين بأنه مسجد نوح الذي بني على الجودي بعد الطوفان، وقد سمي بالتين لكثرته فيه، والزيتون بأنه الجبل الذي بني عليه المسجد الأقصى، لأنه ينبت الزيتون، وأما "طُورِ سِينِينَ" فهو الجبل المعروف بالصحراء التي تقع بين مصر وبلاد الشام[٤٤].

وقيل: إن في هذا القسم إيماء إلى أعظم الشرائع الواردة للبشر، فالتين إيماء إلى رسالة نوح، وهي أول شريعة لرسول، والزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم، فإنه بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث، و"طُورِ سِينِينَ" إيماء إلى شريعة التوراة، و"الْبَلَدِ الأَمِينِ" إيماء إلى مهبط شريعة الإسلام، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى لأنها تكملة لشريعة التوراة.

وقد يكون الزيتون على تأويله بالمكان وبأنه المسجد الأقصى إيماء إلى مكان ظهور شريعة عيسى عليه السلام ... ويكون قوله: "وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ" إيماء إلى شريعة إبراهيم وشريعة الإسلام، فإن الإسلام جاء على أصول الحنيفية[٤٥].

---

(٤٣) يراجع السابق ٣٠.
(٤٤) التحرير والتنوير ٣٠/٣٧٠.
(٤٥) السابق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول ابن القيم: وهذا الذي قالوه حق، ولا ينفي أن يكون منبته مرادا أيضا، فإن منبت هاتين الشجرتين حقيق بأن يكون من جملة البقاع الفاضلة الشريفة، فيكون الإقسام قد تناول الشجرتين ومنبتهما، وهو مظهر عبدالله ورسوله وكلمته وروحه عيسى بن مريم، كما أن طور سينين مظهر عبده ورسوله وكليمه موسى، فإنه الجبل الذي كلمه عليه وناجاه وأرسله إلى فرعون وقومه، ثم أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه(٤٦).

ولا أستطيع الجزم بأي مما سبق، غير أن دلالة القسم الإلهي على عظمة المقسم به، بغض النظر عن تأويله تدفعني إلى القول بأن الله تعالى أقسم بهذه الأربعة، لكونها من عظائم خلقه (وخلقه كله عظيم) وأجمله وأجمعه لصفات الحسن والكمال، على خلق الإنسان في أحسن صورة، وأقوم مثال، إذ "الحقيقة الرئيسة التي تعرضها هذه السورة هي حقيقة الفطرة القويمة التي فطر الله الإنسان عليها، واستقامة طبيعتها مع طبيعة الإيمان، والوصول بها معه إلى كمالها المقدور لها، وهبوط الإنسان وسفوله حين ينحرف عن سواء الفطرة واستقامة الإيمان"(٤٧)، وبذلك يحصل نوع من المناسبة بين القسم وجوابه.

فالتين والزيتون من أعظم الأشجار وأنفعها وأجملها، وجبل الطور من أعظم الجبال وأرسخها وأشرفها، إذ إليه تجلى رب العزة تبارك وتعالى، ومكة المكرمة أفضل البلاد وأحسنها، لما تمتاز به من مزايا، ولم تختص به من فضائل لا توجد في غيرها من البلدان قاطبة، ولا يمنع ذلك من أن يكون في هذا القسم ترق من الفاضل إلى الأفضل- كما قال ابن القيم- حيث بدأ بالشجر، وثنى بالجبل، وثلث بالبلد الأمين، وهو ترتيب تصاعدي يبدأ بالأدنى وينتهي بالأعلى، من وجهات النظر المختلفة.

(٤٦) التبيان في أقسام القرآن ٣٠.
(٤٧) في ظلال القرآن ٣٩٣٢/٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى هذا يكون في إقسام الحق تبارك وتعالى بـ "الْبَلَدِ الْأَمِينِ"، ووضعه في قمة ما أقسم به من مخلوقاته تشريف له أكبر تشريف، وتعظيم له فوق ما نال من تعظيم، وفي الإشارة إليه بالاسم "هذا" ما سبق بيانه من دلالة على حضوره في الأذهان حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد، بجانب ما يفيده بجرسه من تعظيم المشار إليه وتفخيمه، وفي وصف "البلد" بـ "الأمين" بمعنى: آمن، من أمن الرجل أمانة فهو أمين[٤٨] مجاز عقلي، أسند فيه ما حقه أن يكون للفاعل إلى المفعول، لأن حقيقة التعبير: أمين أهله، بمعنى آمنون، ولو جاء التعبير القرآني على حقيقته، لكان مجرد إخبار بأمن الناس في هذا البلد، لكن الصورة المجازية تجعل الأمن صفة يتمتع بها هذا البلد بكل مكوناته، وبكل ما فيه من جمادات وطيور وحيوانات، وبكل من فيه من أناس، مسلمين وغير مسلمين.

وفي إيثار التعبير بـ"الأمين" بزنة فعيل ما يضفي على الصفة نوعا من المبالغة التي تصف واقع هذا البلد خير وصف، إذ لو قيل "آمن"، لكان فيه شيء من عدم الوفاء بما يتمتع به هذا البلد من أمن لكل ما فيه وجميع من فيه.

*****

(٤٨) إرشاد العقل السليم ٣٢/٧.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني

بلاغة التعبير القرآني عن "المدينة المنورة"

وردت كلمة "المدينة" – مفردة ومجموعة – في الذكر الحكيم في سبعة عشر موضعا، منها أربعة مواضع – بصيغة المفرد – مقصود بها مدينة رسول الله ﷺ[٤٩]، ومنها خمسة مواضع بصيغة الإفراد[٥٠]، وثلاثة بصيغة الجمع مقصود بها مصر أو حاضرتها[٥١]، وموضع واحد مقصود به مساكن قوم لوط[٥٢]، وموضع ثان مقصود به ديار ثمود[٥٣]، وموضع ثالث مقصود به المدينة التي خرج منها أصحاب الكهف[٥٤]، وموضع رابع مقصود به المدينة التي نزل بها موسى والخضر عليهما السلام[٥٥]، وموضع أخير مقصود به المدينة التي كان يسكن أقصاها مؤمن آل ياسين[٥٦].

وسوف يتم فيما يلي الوقوف على أسرار النظم الحكيم في المواضع التي قصد بها المدينة المنورة.

الموضع الأول

- في سورة التوبة يقول تعالى "وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ. وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ"(التوبة ١٠٠-١٠٢).

---

(٤٩) التوبة ١٠١، التوبة ١٢٠، الأحزاب ٦٠، المنافقون ٨.
(٥٠) الأعراف ١٢٣، يوسف ٣٠، القصص ١٥، ١٧، ٢٠.
(٥١) الأعراف ١١١، الشعراء ٣٦، ٥٣.
(٥٢) الحجر ٦٧.
(٥٣) النمل ٤٨.
(٥٤) الكهف ١٩.
(٥٥) الكهف ٨٢.
(٥٦) يس ٢٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهو موضع يأتي في سياق الحديث عن أصناف الناس المحيطين برسول الله ﷺ في المدينة المنورة، فقد كانت غزوة تبوك (التي نزلت هذه السورة في أعقابها) كاشفةً عنهم، وموضحة لهم، حيث استأذن فريق في القعود عن القتال، منهم الصادق ومنهم غير الصادق، كما تولى فريق وتخلف من غير عذر ولا استئذان، ومن ثم نزلت سورة التوبة لتفضح المنافقين وتكشفهم لرسول الله ﷺ، وفيها وعد من الله تعالى بكفايته إياهم.

وفي الموضع الذي بين أيدينا تحدثت الآيات عن جزاء السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار (الذين استجابوا لله والرسول ولم يتخلفوا عنه) ومن ساروا على نهجهم، بإثبات رضا الله تعالى عنهم ورضاهم عنه "**رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ**"، وهو تعبير يشيع جو الرضى الشامل الغامر، المتبادل الوافر، الوارد الصادر، بين الله سبحانه وهذه الصفوة المختارة من عباده، ويرفع من شأن هذه الصفوة- من البشر- حتى إنهم ليبادلون ربهم الرضى وهو ربهم الأعلى، وهم عبيده المخلوقون .. وهو حال وشأن وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ولكن يتنسم ويستشرف ويستجلى من خلال النص القرآني بالروح المتطلع والقلب المتفتح والحس الموصول"[٥٧]، والتعبير فيه بالفعل الماضي "رضي" يدل على حصول الرضا حصولا ليس معه احتمال تبدل أو تحول عن هذه الحالة، جزاء وفاقا.

وبعد ذكر الرضى الدال على النعيم النفسي جاءت الآية بما يدل على النعيم الحسي، والذي يعد علامة هذا الرضى المتبادل ومؤكدا له، وذلك في قوله "**وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**" بإسناد الفعل "أعد" إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى، تشريفا وتكريما لهؤلاء السابقين، وتعديته إلى المفعول "جنات" جمعا مع التنكير، للإشارة إلى كثرة ما أعد لهم من جنات، وعدم وفاء اللفظ بحقيقتها، ومن ثم تذهب النفس فيها كل مذهب، وفي وصفها بجملة "**تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ**" بما فيها من مجاز عقلي، حصل من إسناد الفعل "تجري" إلى

(٥٧) في ظلال القرآن ٣/١٧٠٥.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

"الأنهار"، وكان حقه أن يسند إلى المياه، نوع من الإثارة والتشويق إلى ما في الجنان بذكر مظهر واحد من مظاهر نعيمها، إذ يريك التعبير القرآني قوة اندفاع الماء في هذه الأنهار بطريقة تجعل المشاهد لها يظن أن الأنهار بأرضها وشواطئها هي التي تجري، وليست المياه، وكأن الجالس في هذه الجنان يجلس فوق سفينة عائمة على أنهار تذهب به هنا وهناك، وذلك مظهر من مظاهر النعيم كاف في الإلماح إلى شرف هذا الصنف من المحيطين برسول الله ﷺ في المدينة المنورة، ولم يفت الآية الكريمة أن تعبر بما يدل على دوام ذلك النعيم دواما ليس معه احتمال انقطاع او زوال "**خَالِدِينَ فِيهَا**"، والذي أوثر فيه التعبير بصيغة الخلود جمعا، لما يلمح إليه الجمع من حصول أنس هؤلاء السابقين ببعضهم، مما يبلغ بالنعيم أعلى درجاته، وأرفعها.

وبعد الحديث عن السابقين الأولين يأتي الحديث عن صنف المنافقين في أسلوب تقابلي يزيد من حسن الحسن، ويضاعف من قبح القبيح "**وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**".

وهو يأتي بعد أن تحدثت السورة عن المنافقين بصفة عامة في قوله تعالى "**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ. وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**"(التوبة ٩٧-٩٨) وما يسبقه من آيات، ومن ثم فإن إعادة الحديث عنهم مرة ثانية في هذا الموضع يعد من باب ذكر الخاص بعد العام، إذ تتحدث الآية التي معنا عن صنف خاص من المنافقين، لتُعلِم النبيَّ ﷺ بوجوده داخل مدينته وحولها، وتخبره أيضا بوعيد الله تعالى لهم في الدنيا والآخرة، وخص هذا الصنف بالحديث عنه مرتين، إحداهما على سبيل العموم، والأخرى على سبيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخصوص، لأنه "صنف حذق النفاق وتمرن عليه، ولجّ فيه ومرد، حتى ليخفى أمره على رسول الله ﷺ"[٥٨].

والآية الكريمة تذكر أن هذا الصنف موجود في الأعراب، معبرة عنهم بـ "وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ" الذي يدل على أنهم من المقيمين في المناطق المحيطة بالمدينة، إلا أن التعبير القرآني يومئ أيضا إلى ما يقوم به هؤلاء من إظهار التفافهم حول الرسول ﷺ والمؤمنين معه، ومساعدتهم لهم في المواقف على اختلاف أنواعها، مما يصعب معه التعرف عليهم، واكتشاف أمرهم.

ثم تتحدث الآية عن أن هذا الصنف موجود في مدينة رسول الله ﷺ، فتقول عاطفة بحرف الواو الذي يفيد مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في الحكم "وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ" لبيان أن مدينة رسول الله ﷺ التي يعيش فيها، ويقيم معه بها السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار يوجد بها هذا النوع الخطير من المنافقين، وفي التعبير بـ "من" التي للتبعيض، إلماح إلى أن هؤلاء بعض من كل، وأنهم جزء لا يمكن الشك فيه أو الارتياب به، وهو ما استدعى البيان عنه، والإخبار به.

كما أن كلمة "أهل" بما تدل عليه من الإقامة والسكن[٥٩] تلمح إلى أن هؤلاء من سكان المدينة الأصليين، وليس منهم أحد من المهاجرين، وهو أمر لم يكن يتوقعه رسول الله ﷺ ولا أحد غيره.

وفي التعبير حذف للمسند إليه إذ التقدير: ومن أهل المدينة أناس...، ولعل في حذفه إلماحا إلى بُغض هذه الفئة التي تعمل جاهدة، وبأسلوب محكم لا يكاد يظهر من أجل الإضرار بالرسول ﷺ والمؤمنين معه، ويمكن أن يكون الحذف لأن الاهتمام ليس موجها إلى بيان الأشخاص، بقدر ما هو موجه إلى إبراز وجودهم في مدينة الرسول ﷺ، كما أن فيه ضربا من التحذير، والدعوة إلى التوبة مما هم عليه، ومن ثم يكون في عدم الإفصاح عنهم ستر لهم، ليكون انخراطهم مع إخوانهم

---

(٥٨) السابق.
(٥٩) ينظر لسان العرب ـ مادة أهل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المسلمين في مدينة رسول الله ﷺ - إذا تابوا- أمرا مألوفا، لم يؤثر فيه شيء، وهو هدف تربوي، يحافظ به النظم الحكيم على لُحمة المجتمع المدني المسلم وترابطه.

وفي التعبير بالفعل "**مَرَدُوا**"، الدال بمادته على المهارة والحذق[٦٠]، والمتعدي إلى معموله بالحرف "**على**" المفيد للاستعلاء، والمستعار للتمكن استعارة تبعية. في جملة "**مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ**" إشارة إلى أنهم حذقوا النفاق وتمكنوا منه وتمرسوا عليه لدرجة تجعل من الصعب، إن لم يكن من المستحيل على أي أحد أن يكشفهم فيه. وهو ما يؤكده التعبير بقوله تعالى "**لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ**"، والدال بما فيه من مقابلة على خفاء أمرهم على أفطن البشر وأذكاهم، وهو رسول الله ﷺ، وبما فيه من قصر، جاء من تقديم المسند إليه بصيغة التعظيم "**نَحْنُ**" على الخبر الفعلي "**نَعْلَمُهُمْ**"[٦١]، المسند إلى ضمير الحق سبحانه وتعالى مرة ثانية بصيغة التعظيم، على اختصاص الله تعالى وحده بعلمهم، والمعنى "لا يعلمهم إلا نحن، ولا يطلع على أسرارهم غيرنا، لإبطانهم الكفر في سويداوات قلوبهم"[٦٢].

وجيء بقوله تعالى "**سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**" مفصولا عما قبله لشبه كما الاتصال، ذلك أن ما سبقه من الإخبار باختصاص الله تعالى بعلمهم من شأنه أن يثير سؤالا في نفس المتلقي عما سيفعله الله تعالى بهم، لا سيما وأن الرسول ﷺ والمؤمنون معه لا يمكن أن يعلموهم أو يعلموا عنهم شيئا، فجاءت هذه الجملة لتجيب عما يجيش بصدر المتلقي، وما يثور بداخله.

---

(٦٠) ينظر لسان العرب – مادة امل.

(٦١) إفادة تقديم المسند إليه على الخبر الفعلي القصرَ او تقوية الحكم وتقريره في نفس السامع قضية بلاغية ناقشها كثير من البلاغيين، حيث جزم عبد القاهر الجرجاني ومعه جمهور البلاغيين بإفادة مثل هذا التركيب القصر، ورأى السكاكي جواز إفادته القصر بشروط، والذي اراه ان للسياق دورا مهما في تحديد دلالة مثل هذا التركيب على القصر، أو تقوية الحكم، فقوله تعالى في الآية التي معنا "لا تعلمهم" يؤكد اختصاصه تعالى بعلمهم دون غيره، لا سيما بعد ان نفى العلم بهم عن رسول الله ﷺ بصفة خاصة، والذي يستتبع نفيه عن غيره بصفة عامة. يراجع الإيضاح بتطبيق الشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٩٣ وما بعدها.

(٦٢) الإيضاح بتطبيق الشيخ عبدالمتعال الصعيدي ٩٣/١.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولهذا السبب – أعني شبه كمال الاتصال – تأثيره القوى في تحريك نفوس السامعين، وإثارة أذهانهم لفهم مقاصد الكلام وإدراك مراميه، وهو يبرهن على قوة الأسلوب وتناسق عباراته [٦٣].

وأرى أن كون الفصل هنا لشبه كمال الاتصال يحقق التواصل بين الجمل، ويزيد على ذلك إثارة المتلقي وتحريكه نحو متابعة الأحداث، واستخلاص العبرة والدرس الذي يهدف النظم الحكيم إلى إبرازه، والذي يتمثل هنا – بجانب ما سبق بيانه – في الوعد بحفظ مدينة رسول الله ﷺ والمقيمين بها من شرور هؤلاء ومؤامراتهم، ومن ثم لا يقلق المسلمون من وجودهم لأن الله تعالى تكفل بعقابهم في الدنيا مرتين، بجانب ما ينتظرهم من عذاب وُصِف بـ "عظيم" دون الإفصاح عن كنهه وحقيقته في الآخرة، وفيه من تطمين المؤمنين، وتحذير المنافقين ما ينبغي التنبه له.

•••••

(٦٣) ينظر: النبأ العظيم د. محمد عبدالله دراز ١٦٥،١٦٦– الطبعة الرابعة – دار القلم – الكويت، ففيه دليل على ذلك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الثاني

- يأتي أيضا في سورة التوبة، حيث يقول تعالى "ما كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ ومن حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عن نفسه ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ" (التوبة ١٢٠).

وهو موضع يأتي بعد الإخبار بقبول توبة الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك، وبعد أمر الله تعالى المؤمنين بأن يكونوا مع الصادقين "وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ. يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ" (التوبة ١١٨-١١٩)، والمعنى: كونوا مع الصادقين في إيمانهم، ورافقوهم في كل شيء يقومون به من جهاد وغيره، قال ابن عباس: إنه خطابٌ لمن آمن ... أي كونوا مع المهاجرين والأنصارِ، وانتظِموا في سلكهم، في الصدق وسائرِ المحاسن[٦٤].

وبعد ذلك جاء قوله تعالى "مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ..." ليأمر أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب بالمداومة على عدم التخلف عن رسول الله ﷺ عند خروجه للحرب، وهو أمر جاء في صورة الخبر، وجمهور البلاغيين والمفسرين والأصوليين على أن الأمر قد يأتي في صورة الخبر[٦٥] فيعرب عن معناه على نحو لا يكون لصيغة الأمر أن تعرب عنه، كما أنه يقام في مساق لا يكون لصيغة الأمر أن تقام فيه، فتتناغى معه[٦٦].

---

(٦٤) إرشاد العقل السليم ٢٠٦/٣.
(٦٥) ينظر المفتاح للسكاكي / ١٥٥، المطول على التخليص / ٢٤٦، شروح التلخيص ٢٣٨/٢، الإشارة إلى الايجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام / ٢٧.
(٦٦) صورة الأمر والنهي في الذكر الحكيم ٧٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وذلك واضح في التركيب الآمر بعدم التخلف عن رسول الله ﷺ في الآية التي بين أيدينا، حيث عبر بالفعل "كان" مسبوقا بحرف النفي "ما" وكلاهما يشتمل على حرف مد يبلغ به النفس منتهاه، للإلماح إلى بلوغ نفي التخلف أبعد مدى، مما يشير إلى استبعاد هذا الأمر استبعادا لا عدول عنه، ونفي وروده على الخاطر، ومسح مجرد التفكير فيه من العقول، وهذا المعنى لا يتحقق إذا جاء الأمر في إحدى صوره المعتادة، وثم فرق كبير في الحكم الشرعي بين ما جاء عليه التعبير القرآني، وبين مجيء الأمر في إحدى صوره المعروفة، إذ التعبير القرآني يجعل مخالفة الأمر من غير عذر مُوقِعا في الإثم، مُوجِبا العقاب، بينما الصورة الصريحة للأمر ترتبط بالوسع والاستطاعة لقول النبي ﷺ "...**فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ**"(٦٧).

والإتيان بخبر "كان" المنفي مسبوقا بلام الجحود "**لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ**" فيه تأكيد للنفي، وإشعار بعدم صحة وقوع هذا الفعل من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، لأنهم أرفع من ذلك وأعز، كما أنهم أهل فضل ونجدة ومروءة، شهد لهم بها تاريخهم مع رسول الله ﷺ، ولعل في تقديم "أهل المدينة" على "من حولهم" إلماحا إلى ما لأهل المدينة من دور عظيم، وخطر كبير في التأثير على غيرهم ممن حولهم، إذ هم لهم تبع في النجدة والمروءات، مما يجعل دورهم في نصرة الإسلام، والدفاع عن رسوله عظيما، ومن ثم يحثهم القرآن هنا على المداومة عليه.

وأوثر التعبير في "**أن يتخلفوا**" بالفعل المضارع مع تعديته إلى المفعول بالحرف "**عن**" الذي يفيد المجاوزة(٦٨)، لما يفيده من الاستمرار التجددي، المشعر بضرورة الثبات على ما هم عليه من دعم الرسول ﷺ ونصرته، بجانب ما يختص به من تصوير الحالة كأنها ماثلة مشاهدة، نرى فيها رسول الله ﷺ وقد لبس لأمة الحرب، ممسكا بسيفه، ليدفع أعداء الله تعالى، مُعَرِّضا حياته للخطر، بينما آخرون قاعدون يضنون بأنفسهم عن نصرته، ونصرة شريعته، وهي صورة منفرة تبعث من

(٦٧) رواه مسلم برقم (٣٣٢١).
(٦٨) الجنى الداني ٤٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتفكر فيها على رفضها، يقويها تعدية الفعل إلى "رسول الله" دون القتال أو غيره.

لو قيل: ما كان لأهل المدينة أن يتخلفوا عن القتال مع رسول الله، لما كان له الأثر الذي جاء به التعبير القرآني، لأنه لا يزيد عن كونه أمرا بعدم التخلف عن القتال بينما ما جاء به النظم الحكيم فيه تخلف عن رسول الله ﷺ، الذي يعد الإضرار به إضرارا بالدين، وإضرارا بالأمة، وتهديدا لوجودها، ومن ثم أوثر التعبير عنه بـ "رسول الله" دون محمد مثلا، وغير ذلك مما يجعل البون شاسعا بين التعبير القرآني وغيره.

والرغبة عن الشيء تعني: تركه عمدا مع الزهد فيه [٦٩]، وجيء بقوله "وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ"، لبيان من تقصدهم الآية الكريمة، إذ التخلف عن رسول الله يمكن أن تكون له أعذار شرعية مقبولة، ومن ثم كان التعبير بهذه الجملة دالا على أن التخلف الناتج عن الخوف على النفس، والضن بها هو المراد، وهو في الوقت نفسه يشعر باعتداد من يفعل ذلك بنفسه، واستهانته بنفس رسول الله ﷺ مع أنها أعز نفس عند الله سبحانه وتعالى، يقول الزمخشري "أمروا بأن يصحبوه على البأساء والضراء، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغتباط، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه، علما بأنها أعزُّ نفس عند اللّه وأكرمها عليه، فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدّة وهول، وجب على سائر الأنفس أن تتهافت فيما تعرضت له، ولا يكترث لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه، فضلا عن أن يربأوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه، وهذا نهى بليغ، مع تقبيح لأمرهم، وتوبيخ لهم عليه، وتهييج لمتابعته بأنفة وحمية"[٧٠].

وأخلص من ذلك أن لهذا التعبير القرآني الذي ورد فيه اسم المدينة المنورة من الدلالات ما يلي:

---

(٦٩) لسان العرب ـ مادة رغب.
(٧٠) الكشاف ٣٢١/٢.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا- الثناء على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب لما قاموا به في غزو تبوك، إذ جعل التخلف ليس مما ثبت لهم، وأنهم براء منه، وأثبت لهم ضده وهو الخروج مع النبي ﷺ إذا غزا.

ثانيا- التعريض بالقلة الذين تخلفوا عن الغزو مع رسول الله ﷺ من أهل المدينة ومن الأعراب.

ثالثا- النصح بالمداومة على تلك الحالة المحمودة في مستقبل أيامهم، نصرة لرسول الله ﷺ وإعزازا لدينه، إذ هذا هو المنتظر من أهل المدينة خاصة، ومن الذين يجاورونها كذلك.

رابعا- الإشارة إلى أن أهل المدينة هم الصادقون، الذين دعت الآية السابقة المؤمنين أن يكونوا معهم، يقوي ذلك ويؤكده قول الرسول ﷺ "إِنَّ الإِيمَانَ لَيَأْرِزُ إِلَى الْمَدِينَةِ كَمَا تَأْرِزُ الْحَيَّةُ إِلَى جُحْرِهَا"(٧١)، بما فيه من دلالة على أن المدينة هي موطن الإيمان والمؤمنين الصادقين إلى آخر الزمان.

*****

(٧١) رواه مسلم برقم (٣٩١)، ويراجع من الخصائص البلاغية في حديث الرسول عن الفتن دراسة في صحيح مسلم – بحث مقبول للنشر بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية – العدد الثلاثين – د. صبحي المليجي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الثالث

- في سورة الأحزاب يقول تعالى "لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا. مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا. سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا" (الأحزاب ٦١-٦٢).

سورة الأحزاب من السور القرآنية التي عقدت لتشريف الرسول ﷺ وأهل بيته، وهذا الموضع يأتي في سياق بيانها عقاب من يؤذي رسول الله ﷺ بصفة خاصة أو أحدا من أفراد بيته أو أمته بصفة عامة، ردعا للمنافقين الذين كانوا يستغلون بعض الأحداث التي تقع بمدينة رسول الله ﷺ في تشويه الإسلام والنيل من رسوله المكرم ﷺ "إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا. وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا. يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا"(الأحزاب ٥٧-٥٩).

ومما يلحظ في هذا السياق أنه ابتدأ- على عادة القرآن الكريم- بالوعظ والتخويف والإنذار المُوضّح عقوبةَ من يؤذي رسول الله ﷺ أو أحدا من أهل بيته أو أمته، ثم انتقل في الآية التي معنا إلى تهديد المنافقين بعقاب في الدنيا يشرعه الله لهم إن لم يقلعوا عن ذلك، للعلم بأن هؤلاء لا ينفع معهم وعيد الآخرة، لأنهم لا يؤمنون بالبعث أصلا، ولا يخفى ما في ذلك من تشريف النبي ﷺ وتشريف آله وتشريف أمته.

وتبدأ الآية هذا التهديد بأسلوب الشرط، لما يمتاز به من إيضاح وبيان، لتكونه من جملتين، إحداهما لفعل الشرط، والأخرى للجزاء المترتب عليه، ويلحظ قرن أداة الشرط باللام الموطئة للقسم، والدالة على أن ثم قسما محذوفا "لئن"، كما يلحظ قرن الجواب أيضا باللام والنون المؤكدتين "لنغرينك"، وفيه إلماح إلى أن الغضب لرسول الله ﷺ قد بلغ منتهاه، وأن إيقاع العقاب الذي نصت عليه الآية أمر لا تراجع فيه ولا تردد، كما يلحظ استعمال "إنْ" أداة للشرط، ذلك أن دلالاتها على الشك يجعلها تومئ إلى أن الأمل- بعد هذا التهديد- كبير في امتثال المرجفين، وامتناعهم عن إيذاء الرسول الأمين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتعبير بالفعل "ينته" الدال بمادته على الكف والانتهاء[٧٢] يدل على أن الغاية ليست الكف المؤقت، إنما هي الامتناع التام، والكف المطلق الذي لا عودة بعده إلى إيذاء الرسول ﷺ بأي صورة من الصور، وفي حذف معموله "عن إيذاء الرسول" نوع من التعميم الذي يشمل ما يفعلونه، وما يفكرون في فعله، بجانب ما فيه من دلالة على استهجان هذا الفعل واستقباح ذكره.

وعبرت الآية عمن يفعل ذلك بـ "**الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ**"، وأعتقد أنها مسميات متنوعة لأفراد محددين، ومن ثم فإن إطلاق هذه المسميات عليهم إشارة إلى أنهم جمعوا في داخلهم أشنع الصفات وأقبحها، وأن قلوبهم امتلأت حقدا وغلا على رسول ﷺ وأتباعه، كما أن فيها تسويغا وتعليلا لما يأتي تهديدهم به في جواب الشرط.

إذ النفاق يعني: أن يظهر الرجل خلاف ما يبطن[٧٣]، ولا يخفى ما لذلك الإنسان من خطورة تستوجب كفه عن ممارسة هذا العمل المزلزل، كما أن قوله "**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**" المكون من الحرف "**في**" المفيد للظرفية، مع تنكير "**مرض**"، وجعل القلب ظرفا له ووعاء، يدل على أن أمراضا متنوعة وعظيمة قد تغلغلت في قلوب هؤلاء وملأتها، وأوثر ذكر القلب دون غيره، لما له من تأثير عظيم على كل أعضاء البدن، إذ هو المتحكم في أفعال البشر، لقول النبي ﷺ "...أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ"[٧٤]، أما الإرجاف فالمقصود به هنا: تناقل الأخبار السيئة[٧٥]، وأوثر التعبير عنه بالمادة الدالة على الاضطراب الشديد[٧٦]مجازا مرسلا علاقته المسببية، حيث عبر بالمسبب وأراد السبب، لإبراز ما تحدثه تلك الأخبار التي يتناقلونها من اضطرابات وقلاقل داخل المجتمع المدني، لا سيما إذا كانت متعلقة بالرسول ﷺ أو أحد من أفراد أسرته، وذلك كله يقتضي ضرورة التحرك لتأديب هؤلاء إذا استمروا على ما هم فيه.

والتعبير بـ "**الْمَدِينَةِ**" في هذا السياق مرتين، إحداهما باللفظ الصريح، والأخرى بالضمير في قوله "**لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا**" له من الدلالات ما يلي:

---

(٧٢) لسان العرب – مادة نهي.
(٧٣) يراجع لسان العرب – مادة نهي.
(٧٤) صحيح البخاري برقم (٥٢)، وصحيح مسلم (٤١٧٨).
(٧٥) لسان العرب – مادة رجف.
(٧٦) السابق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولا- الإلماح إلى ما للمدينة من شرف وخصوصية يستوجبان تخليصها من الأذى المتصفين بهذه الصفات الشنعاء، يؤكده قول النبي ﷺ "الْمَدِينَةُ كَالْكِيرِ تَنْفِي خَبَثَهَا وَيَنْصَعُ طَيِّبُهَا"[٧٧].

ثانيا- بيان ما للمجتمع المدني من مزية الترابط والتكاتف والتلاحم، ومن ثم ضرورة العمل على استمراره على هذا النحو.

ثالثا- الدلالة على جدارة المدينة بأن تخلص لرسول الله ﷺ والمؤمنين به، وألا يجاور فيها أحد غير هؤلاء.

ولو جاء التعبير القرآني خاليا من ذكرها، فقيل مثلا: لئن لم ينته المنافقون والمرجفون لنغرينك بهم، لما فهم ما أشرت إليه، والذى أرى فيه تشريفا لهذه البقعة وحرصا على تطهيرها، والله تعالى أعلم.

ولا يخفى ما في تركيب جملة الجزاء "**لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا**" من تهديد بالقتل والإخراج من المدينة، وفيه ترق من الأدنى إلى الأعلى، إذ الإخراج منها أشد على نفوسهم من القتل فيها، وقد عطفه بـ"ثم" لما يحتاجه من بعض الوقت الذي عبر عنه النظم الحكيم بقوله "قليلا".

وقوله "**مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا**" حال من المنافقين وما عطف عليه، وهو كناية عن ضرورة إهانتهم والحرص على تجنب الاختلاط بهم والحديث معهم، في داخل المدينة وخارجها، كما أن فيه إشارة إلى جواز قتلهم والتنكيل بهم إن هم استمروا على ما هم عليه بعد نزول الآية الكريمة، لأن ذلك تشريع الله تعالى وطريقته المتبعة مع هؤلاء وأمثالهم، ممن يؤذن الأنبياء، ويعملون على تفكيك المجتمعات، ومن ثم جاء قوله تعالى "**سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا**" مفصولا عما قبله، كما يفصل السؤال عن الجواب، فيما يعرف بشبه كمال الاتصال.

*****

(٧٧) رواه البخاري برقم (١٨٨٣).

المسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضع الرابع

• في سورة المنافقون يقول تعالى "**يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**" (المنافقون ٨).

وهو موضع يأتي في سياق حديث السورة عن الأسباب التي من أجلها لن يقبل الله تعالى استغفار الرسول ﷺ للمنافقين، إن هو استغفر لهم "**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**"(المنافقون ٦)، حيث جيء بعد ذلك بقوله تعالى "**هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ**"(المنافقون ٧) مفصولا عما قبله كما يفصل الجواب عن السؤال، فيما يعرف بشبه كمال الاتصال، الذي يثير النفس ويضاعف من تطلعها إلى معرفة ما قاموا به من أعمال قبيحة، وما يتصفون به من صفات ذميمة، جعلت استغفار الرسول ﷺ لهم – مع ما له من مقدار عند الله تعالى– غير مجاب.

كما جيء بالآية التي معنا لبيان سبب آخر من أسباب عدم قبول استغفار الرسول ﷺ لهم، فهي تذكر بما قام به عبدالله بن أبي سلول من إساءة، لا يمكن أن يغفرها الله تعالى له، حتى وإن أنكرها، أو استغفر له الرسول منها[٧٨]، ولا يخفى ما في ذلك من تشريف الرسول ﷺ وإهانة من يؤذيه.

وتبدأ الآية بالفعل المضارع "**يقولون**" والذي أسند إلى ضمير الجمع مع أن القائل فرد، لرضا جميع المنافقين به، وعدم إنكار أحد منهم ما قاله ابن أبي سلول، أو قيامه بمراجعته فيه، وأوثر التعبير بالمضارع لما يختص به من استحضار الحالة الماضية كأنها حاضرة ماثلة في الأذهان، فتثير العجب من اجترائهم على سب رسول الله ﷺ والدعوة إلى إخراجه والمؤمنين معه من المدينة المنورة، كما أن تلك الصورة

(٧٨) فقد رُوِيَ أن جَهْجَاهَ بنَ سعيدٍ أجيرَ عمرَ رضيَ الله عنهُ نازعَ سناناً الجُهَنِيَّ حليفَ ابنِ ابيَ واقتتلا، فصرخَ جَهجاهُ يا للمهاجرينَ، وسنانٌ يا للأنصارِ، فأعانَ جهجاهاً رجالٌ من فقراءِ المهاجرينَ ولطمَ سناناً، فاشتكى إلى ابنِ أبيَ، فقالَ للأنصارِ لا تُنفقُوا الخ، واللهِ لئن رجعنا إلى المدينةِ لَيُخرجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، عنى بالأعزِّ نفسَهُ وبالأذلِّ جانبَ المؤمنينَ، وكان ذلك في غزوة تبوك. إرشاد العقل السليم ٣٢٨/٦.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المستحضرة تنطق بعدم استحقاقهم مغفرة هذا الذنب القبيح، ومحو ذلك القول الشنيع الذي ينطق نظم العبارة بشناعته وبشاعته، حيث آثر ذلك القائلُ الرجيم[٧٩] قرن أداة الشرط باللام الدالة على قسم محذوف "لئن"، مع إسناد فعل الشرط إلى نفسه بصيغة التعظيم "رجعنا"، وقرن الجواب أيضا باللام والنون المؤكدتين "ليُخرجن" ثم التعبير عن الفاعل والمفعول بصيغة التفضيل "الأعز - الأذل"، وفي ذلك من الشناعة والإساءة إلى رسول الله ﷺ ما لا يقبله إنسان، وما يعف القلم عن بيانه.

وتعليق فعل الرجوع بـ "**الْمَدِينَةِ**"، مع إعادة التعبير عنها بالضمير في قوله "**مِنْهَا**" -والمقدم على المفعول "**الأذل**" لتأكيد أن الإخراج سيكون من المدينة - في هذا السياق يدل على ما يلي:

أولا- طمع المنافقين في أن تخلص المدينة لهم، لحبهم إياها.

ثانيا- معاقبتهم على إيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين معه بحرمانهم من الإقامة فيها، وإخراجهم منها، وقد سبق بيان ما في ذلك من شدة على نفوسهم في الموضع السابق.

ثالثا- تشريفها بتخليصها للرسول ﷺ والطائفة المؤمنة، وتطهيرها من المنافقين وأذنابهم.

رابعا- الإلماح إلى أن المدينة لا يسكنها ولا يقيم بها إلا من أعزه الله تعالى بالرسالة أو الإيمان.

ولو جاء التعبير القرآني خاليا من ذكر "**الْمَدِينَةِ**"، فقيل مثلا: يقولون لئن رجعنا ليخرجن الأعز الأذل، لما كان وافيا بحق المدينة، ولا دالا على أن الإخراج - بما له من وقع شديد على النفس - سيكون منها.

وجيء بقوله تعالى "**وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**" لإبطال ما قاله ذلك الأخرق، من خلال إثبات العزة لله تعالى ولرسوله وللمؤمنين، بأسلوب القصر الناشئ عن تقديم الخبر "**لله**" على المبتدأ "**العزة**" مع عطف الرسول والمؤمنين على اسم الجلالة العلم، وتكرار حرف اللام مع كل معطوف منهما، يقول ابن عاشور: وإعادة

(٧٩) أقصد عبدالله بن أبي سلول، لأن القرآن يحكي مقالته.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللام في قوله "ولرسوله" مع أن حرف العطف مغن عنها لتأكيد عزة الرسول ﷺ وأنها بسبب عزة الله ووعده إياه، وإعادة اللام أيضا في قوله "وللمؤمنين" للتأكيد أيضا، إذ قد تخفى عزتهم وأكثرهم في حال قلة وحاجة [٨٠]، وفيه من أمارات التشريف ودلالته ما لا يحتاج إلى إيضاح.

وأوثر التعبير عن هذا المعنى بأسلوب القصر، لما له من مزية تأكيد المعاني وتثبيتها في نفس المتلقي، لأنه يقوم مقام جملتين، إحداهما لإثبات المعنى للمقصور عليه، والأخرى لنفيه عما سواه تحقيقا أو إضافة، وقد أفاد هنا قلب ما يعتقده المنافقون ويؤمنون به، وما قد يحدث من وشاوش ووساوس عند بعض المتذبذبين من أن المنافقين هم الأعزة وغيرهم أذلة، وأثبت ذلك لله تعالى ولرسوله ﷺ وللمؤمنين بأقل عبارة وأقوى أسلوب.

وفي قوله تعالى "**وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ**" نوع من التحقير لهم والسخرية منهم، حيث نفى الله تعالى العلم عنهم، لتدليل على أنهم يقولون ذلك من فرط جهلهم، وهو مفيد في التنفير من الاستماع إليهم، إذ النفس السوية والفطرة السليمة تأبى الانقياد لجاهل، ليس عنده من العلم أقل مقدار، وهذا ما يفيده نفي الفعل المضارع بحرف النفي المختوم بألف المد.

*****

(٨٠) التحرير والتنوير ٢٢٣/٢٨.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خير البريات، وخاتم النبوات. وبعد،،،

فقد خلص هذا البحث الذي جاء في مقدمة ومبحثين إلى النتائج التالية:

أولا- أن ذكر "**مكة المكرمة**" في القرآن الكريم بأسمائها أو باسم "**البلد**" يأتي معظمه في سياق الحديث عن بيت الله الحرام الواقع فيها، أو في سياق دعاء إبراهيم عليه السلام لها قبل بنائه الكعبة أو بعد قيامه ببنائها، كما جاء بعضه في سياق الحديث عن القرآن الكريم، وأنه نزل لإنذار "أم القرى" ومن حولها، وجاء بعضه الآخر في سياق القسم القرآني تشريفا للنبي ﷺ، وتشريفا للبلد الذي يقيم فيه.

أما ذكر "**المدينة المنورة**" فيأتي أغلبه في سياق الحديث عن المنافقين والمرجفين، وجاء موضع واحد منه في سياق أمر أهل المدينة بالمداومة على عهدهم في نصرة رسول الله ﷺ.

ثانيا- أن قصد القرآن من التعبير عن "مكة" بـ "بكة" كان التحديد الدقيق للبيت الذي فضله الله تعالى على بيت المقدس، مع الإلماح إلى ما في مكانه من زحام وقدسية، بينما قصده من التعبير عنها بـ "أم القرى" التنويه بما لها من فضل ومزية بين مدن العالم وقراه، مما يترتب عليه سهولة وصول الوحي منها إلى ما سواها، ويسر تبليغ رسالة النبي ﷺ منها إلى غيرها، أما قصده من التعبير عنها بـ "مكة" فقد كان تذكير المسلمين بما كانوا عليه فيها من استضعاف وما آل إليه حالهم عند فتحها من المنعة والقوة.

وكان قصد القرآن من ذكر "المدينة" باسمها هو تعيينها، ليتسنى الإخبار بما يدبر فيها من المنافقين، وبما يريده الله تعالى لها من الخلوص لرسول الله ﷺ والمؤمنين، بعد تطهيرها من مرضى القلوب المرجفين.

ثالثا- يبرز من الأساليب البلاغية في سياق ذكر القرآن الكريم "مكة" بأسمائها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- التأكيد النافي مزاعم اليهود تفضيلَ بيت المقدس على البيت الحرام، والدالُ على أن أول بيت وضع للناس للذي ببكة، مع تنكير "بيت" لتعظيمه، وذكر مكة باسم "بكة" لتحديد مكان ذلك البيت بدقة، والإلماح إلى أن ازدحام الناس عنده دال على شرف البيت وشرف المكان.
- تعريف القرآن باسم الإشارة تدليلا على حضوره في العقول، مع تعريف البلد الحرام بالعلمية "أم القرى" لبيان تميزها وتأثيرها على مدن العالم وقراه.
- التعبيرعن الحق جل وعلا بضمير المتكلم المعظم نفسه، أو ضمير الغائب العائد على ذاته سبحانه؛ إبرازا لعظمة ما أنعم الله تعالى به على رسوله وعلى المؤمنين.

وفي سياق الحديث عن مكة باسم "البلد" تبرز الأساليب البلاغية التالية:

- تنكير لفظ "بلد" مع تعريفه باسم الإشارة، تعظيما له، وإلماحا إلى حضوره في الأذهان حضورا يغني عن الإشارة إليه باليد.
- تعريفه بلام العهد مع تقديم اسم الإشارة عليه، لما سبق ذكره من الدلالة على تعظيمه، والبرهان على حضوره في الأذهان.
- الأمر المراد به الدعاء لهذا البلد بالأمن وسعة رزق ساكنيه.
- الشرط الموضح عدم شمول الدعاء من كفر بالله تعالى وعبد غيره من المقيمين فيه.
- القسم الدال على شرف هذا البلد في نفسه، وازدياد شرفه بإقامة الرسولﷺ على أرضه.

رابعا- يبرز من الأساليب البلاغية في سياق ذكر القرآن الكريم "مدينة رسول الله" ما يلي:

- ذكر الخاص بعد العام، لتحذير الرسول ﷺ من وجود منافقين في مدينته.
- المقابلة والقصر الدالان على خفاء أمرهم على النبي ﷺ وعدم خفائه على الله سبحانه وتعالى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- شبه كمال الاتصال الموضح عقاب الله تعالى للمنافقين الموجودين فيها.
- الأمر في صورة الخبر لما فيه من شدة إلزام أهل المدينة بالمداومة على عدم التخلف عن القتال مع رسول الله ﷺ.
- الشرط والقسم الرادعان من يؤذون رسول الله ﷺ ويُحدِثون الاضطرابات والقلاقل في مدينته.
- شبه كمال الاتصال الدال على أن سنة الله تعالى في المنافقين والمرجفين هي اللعن والقتل، تحصينا للمجتمع منهم، ووقاية له من سمومهم.
- القصر الدال على أن العزة والمنعة مقصورة على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، وأنها منفية عما سواهم من المنافقين وغيرهم، والملمح إلى أن المدينة لا يسكنها إلا من أعزه الله تعالى بالرسالة أو الإيمان.

وبعد،،،

فما كان من توفيق فإنه محض فضل من الله تعالى، وما كان خطأ فمن نفسي.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثبت

بالمصادر والمراجع

- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود العمادي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- الإيضاح بتعليق عبدالمتعال الصعيدي – طبعة ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م – مكتبة الآداب – مصر.
- البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي تحقيق صدقي محمد جميل – طبعة ١٤٢٠هـ – دار الفكر – بيروت.
- التبيان في أقسام القرآن – ابن قيم الجوزية – دار الفكر.
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور – الطبعة الأولى – مؤسسة التاريخ العربي – بيروت – لبنان ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.
- الجنى الداني في حروف المعاني للمرادي، تحقيق فخر الدين قباوة ومحمد نديم فاضل – الطبعة الأولى – ١٤١٣هـ/١٩٩٣م – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان.
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي– طبعة ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م– نشر دار هجر – مصر.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للألوسي – دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- صحيح البخاري /– الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م – دار الشعب – القاهرة.
- صحيح مسلم – طبعة دار الجيل – بيروت.
- فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير – للشوكاني.
- في ظلال القرآن لسيد قطب – الطبعة العشرون – دار الشروق – القاهرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل للزمخشري تحقيق عبدالرازق غالب المهدي - دار إحياء التراث العربي بيروت.
- لسان العرب لابن منظور - الطبعة الأولى - دار صادر - بيروت.
- المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني تحقيق د. محمد أحمد خلف - مكتبة الأنجلو.
- من الخصائص البلاغية في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفتن ... دراسة في صحيح مسلم - د. صبحي المليجي- بحث منشور بمجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية - العدد الثلاثون.
- النبأ العظيم د. محمد عبدالله دراز - الطبعة الرابعة - دار القلم - الكويت.
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي - تحقيق عبدالرازق غالب المهدي - دار الكتب العلمية - بيروت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner